معالم قرآنية في البناء

بناء على منهاج النبوة

تبيان المعالم.. والأخلاق

أ.د. محمد أديب الصالح



العبيكان
Obeikan

بناء على منهاج النبوة

تبيان المعالم.. والأخلاق

أ. د. محمد أديب الصالح



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالح، محمد أديب

بناء على منهاج النبوة. / محمد أديب الصالح. - الرياض ١٤٢٧هـ

٢١٢ ص؛ ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٧ - ١٠٣ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ - الحديث - مباحث عامة   أ. العنوان

ديوي ٢٣٧,٣   ٥٣٩٣ / ١٤٢٧

رقم الإيداع: ٥٣٩٣ / ١٤٢٧

ردمـــك: ٧ - ١٠٣ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشـر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمـــز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥



توطئة

الحمد لله الذي يسجد له ما في السموات وما في الأرض طوعاً، وكرهاً وظلالُهم بالغدوِّ والآصال.

والحمد لله عالمِ الغيب والشهادة الكبير المتعال، القائم على كل نفس بما كسبت وهو شديد المِحال.

والحمد لله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون. وتبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، سبحانه من إله غفورٍ ودودٍ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، أنزله بالحق وبالحق نزل، وهو النور المبين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى بهذا الكتاب المبين إلى خاتم رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبدالله رحمة العالمين؛ مباركاً ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب، نعم، ونزّله تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين. ويسّره بلسانه ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لدّاً. حيث الغايةُ الكبرى أن يحصل التذكر وتأخذ الهداية سبيلها إلى القلوب ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله؛ أدّى الأمانة في تبليغ ما أنزل إليه من تلكم الآيات البينات، ولم يدَع أن يبيِّن - وقد أوتي القرآن ومثله معه - ما يلزم بيانُه خير بيان، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) (الدخان: ٥٨).
(٢) (النحل: ٤٤).

فجزاه الله عن الأمة ونصرة الحق خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما اختلف الليل والنهار؛ أداءً لبعض حقه وقد أنقذنا الله به من التهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الهداة المهتدين، الذين أدَّوا أمانة نقل الكتاب الكريم وبيانه المحمّدي على خير وجه وأكمله للعالمين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم على طريق القرآن المجيد وبيانه من سنة سيد المرسلين.

وبعد: فليس من نافلة القول أو مكروره التذكير بواحدة من المسلّمات عند أولي الألباب، وهي أن واحداً من أهل النَّصَفَة أوتي ولو أثارة من علمٍ، لا يماري في أن من أجلِّ نعم الله على الأمة المحمدية، بل على البشرية جمعاء، هذا القرآنُ المجيد الذي أنزله الله على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالحق، وبالحق نزل، أنزله عليه - كما تدلّ معالمه - ولم يجعل له عوجاً، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين وينذر به قوماً لداً لعلهم يتذكرون.. هذا الذكر الحكيم - وهو كلام الخلاق العليم - يتبوأ من رفعة القدر وسعة العطاء في كلماته التي لا تنفد، المنزلةَ التي لم يبلغها كتاب ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1]، كما يتبوأ من عظيم المكانة التي لا تجارى في قيمه وحقائقه ومعانيه الناطقة بها معالمه، ناهيك عن أسلوبه وفصاحته، حيث بلغ من سموّه أن الله تبارك وتعالى رقاه إلى مقام دلّ بعظمته أنه المعجز حقاً، وأنه مع دلالاته القاطعة على أنه من عند الله لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته، ولو بالإتيان بسورة من مثله لعجزوا ولم يقدروا ولو تمالؤوا جميعاً على ذلك ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

---

(١) (الكهف: ١٠٩). (٢) (الإسراء: ٨٨).

فسبحان من أنزله تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وجعله مهيمناً على ما سبقه من الكتب، وأغزرَها علماً للعباد ونفعاً، وأجلَّها منزلة وقدراً ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[1].

وهكذا شاء ربنا تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب الخاتم - وقد أنزل على صاحب الرسالة الخاتمة - ينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، ولم لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير. ألا إنه الفصل ليس بالهزل، لا يمتري عاقل في أنه كلّي التشريع، وعمدة الملة. فهو أصل الأصول، وحبل الله المتين، لا تزيغ به الأهواء ولا يخلق على كثرة الردّ - أو عن كثرة الردّ - ولا تنقضي عجائبه، فهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[2] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وأنت واجد في معالمه النورانية الخيرة، المكيِّ منها والمدني، والتي يطالعك من خلالها عمومُ هدايته.. نهجاً من البناء الحضاريّ القويم، على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغَين، الأمر الذي يرقى بالأمة، أن لو عملت به، إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ويوم يقوم الناس لربّ العالمين، ذلك بأن هذه المعالم - وهي من هذا الكتاب وإليه - حقّ كلها، ونور كلها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[4].

---

(١) (المائدة: ٤٨).
(٢) (الجن: ١ - ٢).
(٣) (الإسراء: ١٠٥ - ١٠٦).
(٤) (فاطر: ٣١).

أجل، هو الحق وأنزل بالحق، فليس لشيء من الباطل - كائناً ما كان شأنه وشأن أهله - إلى تلك المعالم من سبيل، مهما افترى المفترون، ومكر الماكرون، وماري السفهاء والملبِّسون، وانتحل العابثون المبطلون. وجلَّ شأن ربنا السميع القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

فطوبى لمن تحملهم نورانية هذه المعالم إلى أن يكونوا على الجادة يحسنون اصطحاب هذا القرآن تلاوة وتدبراً وتذكراً، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويدورون معه - وهو كلام العليم الحكيم - حيث دار. وما أعزَّها ثمرة مخالطةُ تلك المعالم مخالطة إيمانية واعية، تسمو بأصحابها المهديِّين إلى حيث السدادُ في الأقوال والأفعال، والظفر بالسعادة العاجلة، وحسن العقبى يوم الدين، حيث يشهد لهم القرآن بأنهم كانوا في الدنيا لا يدَّعون أن يدوروا معه حيث دار.

وكم دعا السلف الصالح إلى التحقق بذلك، وكشفوا لمن يقوم به عن أعظم البشريات. روى صاحب «الحلية» عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أتى أباه عبدالله بن مسعود فقال: يا أبا عبدالرحمن، علِّمني كلمات جوامعَ نوافع، فقال رضي الله عنه:

«اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً.»[2] وروى الباجي عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة»[3] ورضي الله عن ابن أم عبد إذ يقول: «إنما هذه القلوب أوعية

(١) (فصلت: ٤١-٤٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني: ١ / ١٣٢ . «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ١ / ١٦٥، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ١٣٢ .

(٣) ينظر تفسير الثعالبي: ٢ / ٢٥٢ .

فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[١]. ولا تعجب ما دام القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس على معارضته ولو اجتمعوا وتظاهروا، والذي صرّف الله فيه دلائل الهدى ونوّعها لتخاطب كل عقل وقلب، وسبحان من أنزله على نبينا المصطفى ليكون للعالمين نذيراً.

وعلى هذا السنن من اصطحاب اللمحة السريعة في هذه العجالة في القول: ما بد من التنويه بوضوح الدلالة على أفضلية هذه المعالم وما تتسم به من الدقة المتناهية، والحكمة - البالغة في وفرة عطائها الذي لا يستثني ساحة من ساحات البناء، ذلك البناء الذي لا ينأى عن العبودية لله والحفاظ على إنسانية الإنسان ونصرة الحق وتوفير ما يثمر الحضارة المثلى، لما أن هذه الحضارة من نور القرآن الذي هو المعجزة الحقة الباقية إلى يوم الدين، وسداها ولحمتُها هديه الربانيّ وبناؤه الحق المكين.

وجماع ذلك على صعيد الهداية والبناء الشامل المتكامل للفرد والجماعة والأمة - ناهيك عن البناء الحضاري القويم - قول الله تعالى في سورة الإسراء - وهي سورة مكية -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٢]، وأقوم من القَوام وهو العدل والاعتدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٣]، وفلان أقوم كلاماً من فلان: أي أعدل.

فهذا الكتاب المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم وآخرتهم لأقوم الحالات وأصوبها، وأفضل الطرق وأسدّها، وأوضح السبل وأعدلها؛ فالهداية به قائمة أبداً للحالة التي هي أسدُّ وأعدل

(١) «الربانيون قدوة وعمل» ١٧١، وانظر «الحلية» ١ / ١٢١ .
(٢) (الإسراء: ٩).
(٣) (الفرقان: ٦٧).

وأصوب، ويمكن أن نقول: يهدي للملّة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. وهذا مبنيٌّ على أن كلمة (أقوم) نعت لموصوف محذوف ذهب كثير من العلماء إلى تقديره على الوجوه التي ذكرنا أو بعضها. ومثل هذه الكناية كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[1]. أي بالخصلة التي هي أحسن. فكان أفعل التفضيل (أحسن) صفة لكلمة الخصلة المقدرة.

ولا علينا أن نذكر أن فريقاً من العلماء ذهب إلى أن (أقوم) ليست للتفضيل؛ فالمعنى: يهدي للتي هي قيّمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[2]، وكما قال سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[3]، أي مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على كلا الوجهين في كلمة (أقوم) فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يأتي على وجه الإطلاق في تقرير أن هذا الكتاب الكريم يرشد للطريقة التي هي أسدّ وأعدل فيمن يهديهم وفيما يهديهم له، فيشمَل الهدى - كما يقول صاحب الظلال - أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلَّ منهج وكل طريق، وكلَّ خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي ما أوضحه الزمخشري من عظمة الإعجاز ورفعة الذوق البلاغي في حذف الموصوف بقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في «الكشاف»: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملّة أو الطريقة، وأيَّما قدّرت لم تجد مع الإثبات - أي إثبات الموصوف - ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقَد مع إيضاحه».

وفي خاتمة المطاف: لقد قدمت هذه اللمحة الوجيزة من القول الذي هو في سموِّ موضوعه عن القرآن ومعالمه الخيّرة قليل قليل من كثير كثير،

(١) (فصلت: ٣٤). (٢) (البينة: ٥). (٣) (البينة: ٣).

قدمتها وأنا بسبيل الإشارة المجلى إلى أن الصفحات القادمات هنا ثمرةٌ من ثمرات رحلة ميمونة طالت بعض الشيء، منَّ الله بها عليَّ - وهو ذو الفضل العظيم - صحبت من خلالها عدداً وافراً من المعالم القرآنية المكي منها والمدني، الهادية إلى كل ما هو أسدُّ وأعدل في مختلف الأحوال والشؤون، لما أنها من محكم التنزيل وإليه.

وقد كنت حريصاً - من خلال التدبّر المستطاع - على تناولها بأمانة علمية منهجية والكشف قدرَ الطاقة عن معانيها ومنارات الهداية في كل منها حسب موقعه على الصعيد المطروق في ساحة البناء الشامل المتكامل بمعناه الإسلامي الحضاري، البناء الذي تناول - مع العقيدة والعبادة والأخلاق - شؤونَ الحياة بأكملها، لما أن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيّرة وبيانها من السنة المحمدية، ثم فهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان. وأينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فَثَمَّ شرعُ الله ودينه.

واللهَ أسأل أن يتقبل بقبول حسن هذا العمل النيّر بجوهره وعطائه، المتواضع بتناوله والكلام فيه، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه، وأن يتفضل بالعفو عما يكون من زلل. إنه سميع مجيب الدعاء، لا ربَّ غيرُه ولا خير إلا خيرُه، منه التيسير والعون وإليه المرجع والمآب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة وصفوة الله من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهادين المهتدين؛ أجمعين.

أ. د/ محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم السنة وعلومها في جامعة الإمام محمد بن سعود، وأستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق سابقاً

رئيس تحرير مجلة حضارة الإسلام



البناء.. وإطلالتان في سورة الضحى

«١»

في سورة «الضحى» وهي سورة واضحة المعاني، مشرقة العبارات والنبرات والقرآن كله هدىً ونور ـ إطلالة رفيقة على ساحة من ساحات البناء، وتنمية القدرة الذاتية لمن يناط به معالجة الواقع هدماً للباطل، وما يكون بسبيله ومن دواعيه، وبناءً لكيان الحق في الفرد والمجتمع، تخطيطاً وتبليغاً ومعاناةً، ناهيك عن حسن الأسوة واستقامة التصرف والسلوك لمن يتبعونه على طريق الحق، ويتعاونون معه على مشاق الرحلة المثقلة بالمتاعب والمصاعب، ولمن يأتون من بعده.

كما أن فيها إطلالة رفيقة أخرى على ساحة إنسانية لا تنفصم عن مواقع البناء، وتتعلق أول ما تتعلق بإرشاد الجماعة إلى القيمة الكبرى للإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأن ما قد يطرأ على الفرد ـ ذكراً كان أو أنثى ـ لا حيلة له فيه، لا يُقصيه عن وظيفته الاجتماعية وأثره في بناء المجتمع بالقدر الذي يستطيع في ظل شريعة الله والتآخي بين المؤمنين، وأن العقيدة التي أشرق بها عقله، وخالطت بشاشتها قلبه، أعطته ـ بإذن الله ـ وجوده الإنساني الكريم، الأمر الذي يتيح له الإسهام في تحقيق العبودية الخالصة لله في الأرض ، وذلك منتهى حرية الإنسان وكرامته.

أما الإطلالة الأولى: فنجدها في قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى:١-٨].

إن رسولنا الكريم صلى الله وسلم وبارك عليه قد ابتعث برسالة خاتمة لرسالات السماء؛ من مهامها ـ على طريق الهداية ـ بناء الفرد والأسرة والجماعة بل والأمة ـ بناءً سداه ولحمته ضوابط تلك الهداية؛ وذلك من خلال مجتمع صالح يقوم على عقيدة التوحيد: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وتحكمه شرعة الإسلام.

وكان ذلك جزءاً مما أنيط به ﷺ من تبليغ ما أوحي إليه وبيانه؛ على صعيد التعليم والعمل والتربية بالقول والأسوة، والإعداد المتكامل؛ الأمر الذي يحيل المبادىء في حياة الناس ـ سلماً كانت الحال أو حرباً ـ إلى قوة فاعلة مؤثرة تتحرك بالوقائع والتنفيذ، وهي في الوقت نفسه قوة ناطقة بأحقية ما كانت ترجمة له، على صعيد الواقع في علاقة الناس بربهم، وعلاقتهم بعضهم ببعض.

وكانت المرحلة الأولى لذلك: مرحلة العهد المكي الذي كان مطلوباً من الدعوة فيه أن تسلك الدروب الشائكة، وتتجاوز العقبات الصعاب، في مناخ جاهلي غارق بظلام الوثنية ورواسب الأعراف المجافية للفكر المستقيم، والتقليد الأعمى الذي ينحّي العقل السليم عن التفكير والتدبير، وكل ما يتصل بذلك من تلك الموروثات الجاهلية المحميَّة بدفاع الذائدين عنها بصلابة وإصرار عقيمين. أرأيت إلى قوله تعالى خطاباً للنبي ﷺ وهو على مشارف هذه المرحلة في العهد المكي: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥﴾ سورة المزمل:[١-٥] قال الحسن وقتادة ﴿قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ أي: العملَ به.

والحق أن الآيات الآنفة الذكر من سورة الضحى أعطتنا معلماً قرآنياً أضاء الطريق لروّاد العمل على إحكام البناء المنشود؛ إذ لا بد لمن يناط به كبار الأمور، وعظائم المهمات: أن يحسَّ بأنه يقف على الأرض الصلبة فيما يطلب منه ويعاينه، وأن يكون في غاية الطمأنينة النفسية والقلبية بالرسالة التي وُكل إليه إبلاغها الناس، وتقويم سلوكهم من خلالها، وتطويعهم لأحكامها وأخلاقها.

وهذا بعض ما كان من عطاء تلك الآيات؛ حيث انتصر الله لنبيه ﷺ في وقت الشدة؛ فأقسم أنه لم يتركه ولم يبغضه:﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ وأن الخير أمامه كثير، وحسن العاقبة خاتمة الطريق وهي خير من الدنيا وما فيها ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾.

ثم ذكّره الله ببعض ما أنعم عليه من نعم وفيرة، ومن أنعم بالأولى قادر على الإنعام بالثانية. ولنستتر بذكر الآيات مجتمعة مشرقة بالمعاني المشار إليها، وهي بعض ما تحمل من الهداية والخير.. ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾. روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن جندب البجليّ «أن النبي ﷺ اشتكى ـ مرض ـ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ...﴾ الآيات.

هكذا أقسم الله ـ وله أن يقسم بما شاء من خلقه وبمن شاء ـ بالضحى والليل إذا سجى: أنه لم يترك نبيه محمداً ﷺ ولا أبغضه.

ثم بين له أن الدار الآخرة خير له من الأولى؛ ولهذا كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها اطّراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته العطرة. روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ : «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها» ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المسعودي وقال الترمذي: حسن صحيح.

ويتعاظم العطاء، فيقول تعالى:﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ لقد كان عطاء الدنيا بما كان من انتصار الدعوة والتمكين لها في الأرض، وبناء الدولة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ولسوف يعطي ـ وهو الكريم الوهّاب ـ في الآخرة حتى يرضيَه في أمته وفيما أعدّ له من الكرامة والمقام المحمود.

وبعد: فقد كان هذا الذي نسعد بالحديث عنه من الخير والعطاء: مما كشف عنه المعلم القرآني في أوائل البعثة حيث الخطوة الأولى على طريق الدعوة والتبليغ في ذلك المناخ الجاهلي شديد الوطأة على التوحيد والداعين إليه.

وكم في ذلك من التأييد الإلهي الذي يبعث في النفس قدرة على السير والمتابعة، مهما كانت العقبات، ومحاولات الصرف عن رسالة الخير الهادية البانية.

كما أن في ذلك ـ وهو خطاب رب العزة الرحيم الرحمن ـ تسلية عما يصيب النبي ﷺ ـ وهو يقوم بالبلاغ، ومن ورائه أصحابه وتابعوهم بإحسان عبر التاريخ ـ من لأواء الطريق، على ساحة الصراع بين الحق والباطل.

ولكم نكون على الجادة وعياً للرسالة، وإحاطة بالواقع، حين نحسن الاحتكام إلى ثوابت الهدي المحمدي وضوابط الدين الحنيف ونحن نرسم خطوات التنمية والبناء، ونعمل على إعداد من تناط بهم مسؤولية ذلك، مهما اتسعت الساحات وتنوعت الميادين.

إن الأمة إذا وفقت لفعل ذلك حيزت لها طاقة هائلة متمثلة في هؤلاء الرواد الذين ينتفعون حق الانتفاع بسيرة النبي ﷺ وجهاده الفذّ على طريق الدعوة إلى الله، وتأييد الله له وعونه في وقت الشدة، ويخوضون ساحات البناء والإعداد عن رضىً وطمأنينة، واثقين بنصر الله، معتزين بالراية التي يرفعونها فوق الهامات في سبيل الله.

أجل: محمد ﷺ رسول يوحى إليه، وشدُّ أزرِه ومواساتُه في الساعات العصيبات والانتصار له ـ على المدى ـ كل أولئك كان بعون الله، والله تبارك وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، فلم يتوان رسول الله ولا ضعف عن قيام بواجب.

وكم تمنح الثقة بعون الله وتأييده، من القدرة على تخطي المصاعب، والاستعلاء على المعوقات.

وصلاة الله وأزكى تسليماته على الأسوة الحسنة للمؤمنين سيدنا محمدبن عبدالله الذي خاطبه ربه وهو على عتبة المعارك الفاصلة في تاريخ البشرية بقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

سورة الضحى... والبناء

«٢»

ما سبق من القول في سورة «الضحى» كان بعضاً من وجوه الهداية في فواتح تلك السورة المباركة؛ حيث وقفْنا على واحد من معالم الكتاب الكريم، يضيء الطريق لمن همُّهم بناء كيان الأمة في طاقاتها البشرية المعنوية والمادية، وتنمية قدرتها ـ وهي صاحبة الرسالة الخاتمة ـ على أداء رسالتها التي تقدم المنهج الكامل للحياة، وتسعد الإنسان أن لو التزم بهذا المنهج ـ في دنياه وأخراه.

لقد رأينا الآيات التي كانت شداً لأزر النبي ﷺ، ومواساة له في أوقات الشدة وعصيب الساعات ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وتحملنا الآيات الأخرى إلى تذكير بالنعم؛ فكيف يتركه أو يبغضه من أنعم عليه وأكرمه، ثم إن الذي أفاض عليه هذه النعم هو جلَّ شأنه الذي يمده ـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] ـ بالعطاء الذي يعز تصوره، وإنه لعطاءُ الكريم الذي لا تنفد خزائنه ولا تنقصها النفقة ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وكان هذا التذكير المحبَّب الجميل بقوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

أجل لقد توفي أبوه عبدالله وهو حملٌ في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان صلوات الله وسلامه عليه في كفالة جده عبدالمطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل أبو طالب يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره، ويدفع عنه العاديات من هنا وهناك، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس الأربعين من

عـمـره، وظل الأمـر كذلك حيث تكلؤه ﷺ عناية الله إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، وسمي العام الذي توفي هو والسيدة خديجة رضي الله عنها فيه: «عام الحزن».

والحق أن إيواء رسول الله من اليتم بفضل الله وعونه كان في المرحلة الأولى، وكذلك في المرحلة الثانية حين أقدم عليه سفهاء قريش وجهّالهم بمزيد من الأذى ومناهضة الدعوة والفتنة عن الدين بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، فاختـار الله له الهـجـرة من بين أظهـرهم إلى المدينة بلد الأنصـار من الأوس والخـزرج، ليجـد هناك الأرض الصـالحـة للبـذر الطيب المبـارك المنتج. وتفجـرت ينابيع الخير وتفتحت أكمام البذل والوفاء.

ولقد كان رسول الله ﷺ ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ بعيداً عن موبقات قـومـه بحـصـافـة عـقله ويتطلع إلى الهـداية بنور قلبـه، ويتـحنث في غـار حـراء ويتحرى. فأخرجه الله مما كان فيه إلى الهداية الخالصة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ﴾ فهذا معنى الضلال الذي كان فيه عليه الصلاة والسلام. كما في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

ومما منّ الله به عليه: أنه كان فقيراً ذا عَيْلة فأغناه الله عمن سواه بفضله وعـونه، وذلك بمـا هيـأ له من الأسـبـاب، وسلك به السـبـيل الكريمة في كسب الرزق﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾.

والواقع أن الغنى أمر نسبي، وقد جمع الله لنبيه ﷺ الغنى بعد العيلة وغنى النفس الذي هو الغنى الحقيقي؛ كما بيّن ذلك هو عليه الصـلاة والسلام. روى البـخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس».

ومهما يكن من أمر: فإن هذه القضايا الثلاث التي أشرق بها النص القرآني على هذه الصورة الندية في خطاب رب العالمين لحبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ﴾. ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ﴾. ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾. كانت من أبرز عناصر الإعداد النفسي الشيّق العميق في حياة النبي ﷺ، وهو يحمل رسالة الخير الفنية كلَّ الغنى بعوامل البناء الأصيل للفرد والمجتمع والنماء الطبيعي المتكامل على الصعيدين الروحي والمادي للبشرية قاطبة، حتى يوم النشور. وذلك في نور الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ألم تر إليها ـ أعني تلك القضايا الأم ـ كيف قدّمت لنا بنية الفرد إيواءً بعد يتم، وهدايةً خالصة بعد تحرٍ وتحنث، وغنىً بعد عيلة. كما أنك واجد فيها ما يمكن أن تدعوه علاقة الفرد بالمجتمع؛ لأن النقلة في كل واحدة من الحالات الثلاث الأول وثيقة الصلة بالجماعة ومكان الفرد فيها، خصوصاً إذا لاحظنا سلطان الجاهلية بأعرافها في المجتمع، وما يقابل ذلك من تمخض يعكس التطلّع ـ ولو بالخفاء وعلى قلة ـ إلى شيء جديد.

ولو نظر الناقد البصير نظرة واعية في أي لون من ألوان هديه عليه الصلاة والسلام ـ وهو يقيم البناء الأسوة الأمثل، ويرفع قواعد دولة الإسلام ـ على مستوى الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة والجماعة المسلمة، لرأى كأن هذا الرسول الكريم على تخصص دقيق في كل جانب من جوانب البناء على حِدة، مع ملاحظة ما يتطلبه التكامل ـ على محور الهداية ـ بين جانب وآخر.

ولكن لا بدع؛ فإنه الإنسان المكرَّم الذي اصطفاه الله للرسالة الخاتمة للناس كافةً، وأعدَّه من مختلف الوجوه لها، وهو ﷺ ـ وقد ابتعثه الله على رأس الأربعين ـ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ولعلي ـ بعد هذه الرحلة المجلى ـ لا أبعد النجعة إذا جنحت إلى أن تلكم الآيات من سورة الضحى: ينبغي أن تحملنا ـ وهذا من الإيمان ـ على المزيد من التبصرة في هدي رسولنا المجتبى عليه الصلاة والسلام، وسيرته العطرة التي هي الترجمان العملي لهذا الهدي الميمون.

فقد أغنانا الله برسالته الربانية بعد عيلة، وهدانا بعد عماية وضلال، وأخرجنا بها من الظلمات إلى النور. وما نعانيه من حب الدنيا وكراهية الموت، والاستخذاء أمام أعداء الله وقد تفاقم حقدهم وحرصهم على الغلَب في شتى الميادين: لا يقتحم معاقله إلا تأسٍ صادق، واعتداد واعٍ بهديه عليه الصلاة والسلام، وهو المصطفى الذي صنعه الله على عينه، وأكرم عباده بما شاء من عمق تكوينه وإعداده لرسالة الخير التي تبني معالم الخير، وتنمي في الأمة خصائص الوجود الذاتي، الأمر الذي يسعف ــ بعد عون الله وفضله ــ في نفض غبار الاستخذاء والتقليد الأعمى عن العواتق، ويعيد للأمة استقلالها في صنع القرار المناسب لمكانها تحت الشمس، وأداء رسالتها من جديد في العالمين.

وعناية الله معنا ــ إن نحن صدقناه ــ كما كانت مع نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

والمطلوب إقبال جادٌّ على الانتفاع بالهدي الرباني في الكتاب والسنة وسيرة إمام الهداة وما تحمل من وقائع.



مرة أخرى... مع سورة الضحى والبناء

«٣»

مع الآيات الفواتح المشرقة من سورة «الضحى» والنبرات المؤثرة فيها، والمقاطع التي تجمل الألفاظ بجرسها وعذوبتها وجمال موقعها تخالط القلب، وتدخل أعماق النفس بلا حجاب.

ومع الهداية النورانية من تلكم الآيات الجوامع قطعنا رحلة قصيرة سعدنا من خلالها بالوقوف على ما آذنت به من عظيم محبة اللّٰه تعالى ووافر إنعامه على حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام. وكان من لذيذ الخطاب المعجز ذلك النداءُ العلوي المقترن بكاف الخطاب. الفيَّاض بالرقة والود، والبدءُ بالقسم توكيداً لمكانة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله وسلم وما يحظى به من القرب من مولاه الكريم المنان.

وفي أعقاب ذلك جاءت الإطلالة الثانية التي جرى الإلماح إليها من قبل، والتي تبدو إطلالة على ساحة إنسانية متسعة الأرجاء في المجتمع، تفسح المجال، ولا تدع أن تجعله رحباً لكل أولئك الذين قُدِّر لهم أن يحملوا آثار مصاب أو نكبة؛ فلا يحول ـ على صعيد الشعور الذاتي والعطاء عند الآخرين ما يحملون آثاره من مصاب أو ابتلاء ـ دونهم ودون جعلهم يحسُّون أنهم ـ فعلاً ـ جزء مكرَّم في بناء هذا المجتمع لحماً ودماً، يتمتعون بكل ما يجب لهم من حقوق، ويندفعون راضين مطمئنين ـ بقدر الطاقة المتوافرة لديهم ـ إلى الإسهام الفعَّال في تحقيق القدرة البانية للمجتمع وجوداً واستمراراً، والكفيلة ـ بإذن اللّٰه ـ أن يكون له النمو النافع المتوازن على كل صعيد.

والواقع أن الإسلام ـ كما تدل نصوصه وواقعه التطبيقي ـ له مقاييسه الخاصة الهادية في تحديد من هو المنتج ومن هو المستهلك؟!

فالفرد المبتلى في المجتمع: حين يضمن له هذا المجتمع المسلم قدراً كافياً من

الحياة الكريمة، وما به يحسُّ إحساساً طبيعياً صادقاً بوجوده الإنساني بين إخوانه في العقيدة، وأن مصابَه أو تخلُّفَه اللاإرادي لم يمنعه حقاً، ولم ينزل به عن مستوى الكرامة الإنسانية...

هذا الفرد المعنيُّ بالحديث يكون عنواناً على أن الإسلام ـ في مثل هذه الحال ـ قد اعتبره وأمثاله قيمةً منتجةً في المجتمع؛ لأن المجتمع في نظر هذا الدين ليس قطعاً مادية بحتةً يُركم بعضها على بعض؛ فمن قدر ـ في إطار هذا المفهوم ـ على الحركة فهو المنتج، ومن لم يقدر فهو المستهلك؛ ولكنه مادةٌ وروح، وأخوة ومشاعر، وود وتعاون في ظل الأخوة الإيمانية التي تمليها عقيدة التوحيد، تلك التي تعطي مزيداً من الأهمية لإنسانية الإنسان كما خلقه الله، وتقرر أن المؤمنين إخوة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وكما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما من رواية النعمان بن بشير رضي الله عنه: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» وأن المال مال الله، والناس مستخلفون فيه، قال تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور:٣٣] وقال سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد٧] .

هذا: والذي جرى الإلماح إليه آنفاً من تلك الإطلالة جاء في قول الله جل ثناؤه خطاباً للنبي ﷺ: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

لقد كانت هذه الوصية الربانية الكريمة متسقة كامل الاتساق ـ و الله أعلم ـ مع النعم التي ذكّره الله بها في قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

وإذا كان الأمر كذلك ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ لقد كنت يتيماً فآواك الله: فلا تقهر اليتيم، وكنت عائلاً فأغناك الله: فلا تنهر السائل. واذكر دائماً أنه هو المنعم المتفضل الذي أنعم عليك بخالص الهداية؛ وعلى هذا: فحدِّث بنعمة ربك معلناً شكرانك له جل شأنه.

إن كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ـ كما أسلفت ـ ثروة وعطاء، وإنما يتحقق ذلك في الجميع بأن يشعر المصاب مع التربية والإعداد ـ أنه ليس مخلوقاً نزل به مصابه عن درجة إخوانه في المجتمع الذي يعيش فيه. والمصيبةُ ـ في أحد وجهيها ـ قد تكون من نعم الله الحكيم الخبير.

والآن: أن يكون سيدُ اليتامى رسول الله ﷺ على الصورة التي أوضحها المعلم القرآني، يخاطَب بهذا التوجيه الرباني الكريم. ضياءً على طريق أمتنا في تحديد القيم على صعيد الأفراد والمجتمع الذي ينضوون تحت رايته، وتوجيهاً إلى أن عنوان السلامة في المجتمع ببناء المتعددة أن يكون قادراً على وضع الأمور مواضعها في تنسيق بين الوسيلة والغاية، وترتيب للأولويات، وإفادة من كل الطاقات المتوافرة لدى أبنائه، وإيذان بأن الإسلام ليس من المقاييس المادية البحتة بسبيل..

فبناء الإنسان على العقيدة الراسخة ومكارم الأخلاق من ودٍّ وإيثار وتعاون على البر والتقوى: لا يقل أهميةً عن بناء الطاقة المادية والاقتصادية إن لم يكن أهم، وتنمية المشاعر التي يصنعها الإيمان والأخلاق ـ كيما تنعكس على السلوك وتعمل عملها في إحكام التنشئة للمجتمع المتكافل المتعاون المتراحم ـ لا تقل بل قد تكون أكثر أهمية من تنمية القدرة المادية الرقمية وكفى، وإن كان الكل مطلوباً لعمارة الأرض وتحقيق العبودية لله فيها.

وقد أخذ بناة الحضارة المادية بالجانب المادي الرقمي بعيداً عن العقيدة ومحاسن الأخلاق، فلم يملكوا أن يحولوا دون تسخير العلم لهدم الإنسان في كثير من الأحيان، ولتحقيق السلطان والغطرسة على الآخرين، ناهيك عما تعاني الشعوب من القلق وبعد الإنسان عن راحة القلب وطمأنينة النفس..

فعلوا هذا فذاقوا وبال أمرهم ـ وإن كانوا متفوقين قوةً وغطرسةً ـ وما يزال العالم في كثير من بقاعه أسير تلك المعاناة من ذلك الوبال، والخير كل الخير في منهج الإسلام، إنساني النزعة، شامل المنهج للدنيا والآخرة جميعاً.

* * *

معالم البناء.. والبيان النبوي

«١»

بيان النبي ﷺ للقرآن كما ائتمنه الله عليه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤] لم يكن بياناً تحاصره الكلمات بعيداً عن عملية البناء الكبرى، بناء الإنسان وبناء المجتمع امتداداً إلى بناء الأمة بكاملها.

كما أنه لم يكن في معزل عن ملاحظة طاقات الإنسان وما يكمن فيها من استعداد للنماء ومضاعفة العطاء. ولا في منأى عن مخالطة الحياة بسهلها وحزنها فيما يحدد من المطالب والقضايا والمشكلات بتنمية قدرة الجماعة على مواجهة ذلك كله كيما يستقيم البناء ويتعاظم سليماً معافى في كل ميدان من الميادين على تكامل في النظرة لا تهمل الدنيا لحساب الآخرة، ولا تستغرق الدنيا بإهمال الآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[القصص:٧٧] .

في ضوء ذلك كله نرى في حديث النبي ﷺ حول قوله تعالى:﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ بيان المربي الذي يسهر على بناء إنسان العقيدة، ويمسك بعقله وقلبه ونفسه بزمام المجتمع ليقدمه للدنيا بناء متكاملاً هو المثل في صنيعة البناء من جميع جوانبه الفكرية والتشريعية والأخلاقية كما أرادت معالم القرآن الكريم.

ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول عليه الصلاة والسلام: «الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج أو الروضة كانت له حسنات...» إلى أن يقول: «ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ـ وفي رواية: تكرماً أو تجملاً ـ ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام: فهي على ذلك وزر» الحديث رواه الشيخان وأحمد والترمذي وغيرهم.

والذي يدل على الصورة المتكاملة للبناء في توجيه النبي ﷺ أنه سئل بعد هذا البيان عن الخيل، وكيف أن كل شيء يتعلق بها له وزنه عند الله على سلم الأجر أو الوزر... سئل عليه الصلاة والسلام ـ كما جاء في الحديث السابق ـ عن الحُمُر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة»،﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[الزلزلة: ٧ – ٨].

إنها يد النبوة البانية، والبيان الذي ما بعده بيان لواحد من معالم القرآن الكريم، يوضح أن معالم الكتاب لا تدع أن تبني المجتمع بتكامل لا يهمل ولا يغالي، كما تبني الإنسان بتكامل وتوازن وفق ما هدى إليه الحكيم الخبير.

* * *

البنية الاجتماعية في العالم..

والبيان النبوي

«٢»

في متابعة لطاقة نيرة من البيان النبوي لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يفسح للآية ميدان البنية الاجتماعية، وتحكيم سلطان الخلق الإسلامي في التعامل بين الناس، الأمر الذي يفيض على المجتمع روح الود والتعاون، ويضفي عليه طابع التضامن والإخاء.

ففي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام ـ كما روى أبو ذر رضي الله عنه ـ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط». رواه مسلم وأحمد والبيهقي وغيرهم، وفي رواية لمسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق».

صلى الله وسلم على رسول الله: حين ننظر إلى بنية المجتمعات في بلاد الإسلام اليوم: نجد أن انحسار هذه الروح التي أراد رسول الله أن تكون سمة بارزة من سمات المجتمع المسلم، يسهم ـ إلى حد بعيد ـ فيما يرى من التفكك والجفوة والخضوع لقيم المادة ومقاييسها.

وحين يتطلع المصلحون إلى البناء وإعادة المجتمع إلى ما كان عليه تماسكاً واندفاعاً جماعياً إلى الخير لا مندوحة لهم عن النظرة الجادة إلى كل القيم التي روعيت في عملية البناء الأولى، وما الذي كان صنيع محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه. وكل من استنَّ بسنته في ميادين الإصلاح، وإنماء عوامل التماسك في المجتمع وكل ما من شأنه دفعه إلى السوية اللائقة برسالة أمتنا في البناء والنماء.

ولقد كان الإنسان دائماً في حسبان الرسول الكريم عند تصنيف الاهتمامات في حقول البناء، وتنمية القدرة البشرية في ظل عقيدة التوحيد التي كان لزاماً أن تواجه بأبنائها كل قوى الشر والوثنية في الأرض.

وأنت واجد من صور هذا الاهتمام في إعداد المسلم لهذه المهمة ما روى الإمام أحمد من أن نبي الهدى صلوات الله وسلامه عليه أتاه صعصعة بن معاوية عم الفرزدق، فقرأ عليه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ ولكن ماذا كان من صعصعة؟ لقد قال بعد أن سمع ما سمع: (حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها) وأخرجه النسائي في «الكبرى» والطبراني في «الكبير» وابن الأثير في «أسد الغابة» وغيرهم.

هكذا ـ ومع الاهتمام بالبناء ـ كان حسن الاختيار عند إلقاء البذرة في تربة صالحة للإنبات.

إن جيلاً تتربى منطلقاته في مثل هذه المحاضن من كتاب الله وبيانه من حديث رسول الله هو الجيل المؤهل لأن يقود ركب البناة من جديد، ويكشف عن تلكم الطاقات المهدرة في الأمة ويضعها موضعها حيث الذاتية والعطاء وتنمية الفاعلية على أوسع مدى. والثمرات الطيبة الخيِّرة لذلك مضمونة بإذن الله!!

* * *

البيان النبوي.. والشمول كما تدل المعالم

«٣»

لقد كان رسول الله في بيانه ـ وهو يلج الحياة من كل ميادينها وأبوابها ليوجهها وجهة البناء الإنساني ـ يشهد على التاريخ في مقدار استقامة أبنائه وصانعيه على الطريقة، حين تعهد إليهم الأمة بتعبيد المسالك وتأتمنهم على الريادة.

وفي صفحات قريبات رأينا من بيانه ﷺ لواحد من معالم الكتاب العزيز في سورة «إذا زلزلت»، ما زادنا يقيناً على يقين بأن النبي الكريم كان يعمل جاهداً على أن تكون المفهومات القرآنية ضياء القلوب والعقول، ومحور بناء الحياة وإمداد جوانبها بكل ما يغنيها وينميها ويجعلها قنطرة سليمة للآخرة.

ولقد كان ذلك بما تبعث تلك المفهومات في نفس الإنسان المسلم من الإحساس الصادق بأن أيّ جهد يبذله وأي نشاط يقوم به من الخير هو في ميزانه عند الله.. وفي المقابل لا بد أن يكون على يقظة تامة تنأى عن اجتراح الشر في أي عمل يعمله أو نشاط يأتيه، لما أن المسؤولية تلاحقه حتى على ما كان مثقال ذرة من ذاك العمل أو النشاط ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

وهذا الإعلان الخالد في المعلم القرآني قد شدّ إنسان العقيدة إلى أن يكون متفتح البصيرة، مستيقظ الحسّ عند كدحه وعمله، وذلك ما أثمر أفضل الثمرات وأعطى أكرم النتائج بمفهوم إنساني شامل على المستويات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية حتى وصل ذلك إلى رحمة الحيوان.. فالحيوان الأعجم غير المؤذي ينبغي أن لا يضام في ظل مجتمع لا يعرف إلا البناء الصالح وتنمية الإمكانات الخيرة التي تعود على الفرد والمجتمع بالخير في الدين والدنيا، وكان من الترغيب في ذلك ما حدّث به ﷺ عن واقعة جرت فيمن كان قبلنا أشرقت برحمة الحيوان، فشكر الله لمن رحم ذاك الحيوان فغفر له.

فقد روى البخاري ومسلم أن رسو ل اللّه ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً، ثم أمسكه بفيه، حتى رقي، فسقى الكلب فشكراللّه له فغفر له».

صحيح أن الحديث عمدة في باب الرحمة، ولكن الرحمة هذه صورة من صور المجتمع الفاضل عند المسلمين ـ أن لو استقاموا على هدي الكتاب والسنة ـ لأن ذلك يعني سلامة التصور وسلامة البناء، واستنفاد الطاقات على أساس من الثقة بما عنداللّه، ومن وضع الخلق الكريم، وضعاً يحكم تصرفات الفرد والجماعة لا مع الإنسان فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى مخلوقات اللّه الأخرى وإنها لعبرة نرجو أن توقظ الغافلين عن حقائق هذا الدين.

* * *

البيان النبوي.. في ظل المعلم القرآني

«٤»

كثيراً ما يضيع العمل الذي يتسم بالخيرية والصلاح بين شخصين اثنين:

أحدهما ـ إنسان مستهتر ساقه هواه إلى ساحة الغفلة، وسوّل له شيطانه الانحراف، فأصبح هو في جانب، والعمل البنّاء الذي يعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع والرقي في جانب آخر، بل إن هذا الصنف من الناس معول هدّام في جسم المجتمع والأمة.

أما الثاني ـ فإنسان يريد الخير، ولكنه يغفل عن أن البناء كلٌّ متكامل، وأن حاجة المجتمع في بعض الأحيان إلى جزئية لا يعبأ بها من الجزئيات: قد تكون من نوع حاجته إلى واحدة من الكليات، وأن الأيدي كلها إذا تعاونت وأسهمت، وأحسَّ كل فرد بمسؤولية عن دفع عجلة المجتمع في طريق النهوض والقوة. فذلك عنوان الفهم الصحيح لطبيعة البناء، وأن تنمية القدرة البشرية والمادية في المجتمع، تقتضي عدم الاستهانة بأي عمل مهما كان شأنه؛ لأن النماء يلد النماء، والعكس بالعكس.

والحق أن هذا بعض من عطاء المعلم القرآني في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾.

فالاستهانة بالقليل من العمل الخيِّر تسلم إلى الخسارة والضياع، والاستهانة بالقليل من الشر: تحمل على الإقدام عليه، وتفتح أبواباً من الأذى المارم والعياذ بالله. ومن هنا تبدو عظمة التعبير بمثقال الذرة للخير والشر.

وحسبنا أن نذكّر هنا بصورة من صور البيان النبوي لهذا المعلم الكريم، تلك الصورة التي تشعر بأن كل الطاقات والإمكانات لابد أن توجه إلى المزيد من العطاء كيما تحيط بمتطلبات البناء من جميع الأوجه، وتحول دون المجتمع ودون أن تناله أسباب الأذى والهدم.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين» وفي رواية له: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة».

ترى أي نتائج تصل إليها الأمة لو وظفت هذا التوجيه النبوي بموضوعية على طريقها في البناء والسلوك وأخذ دوره في منهج الحياة.

وأخيراً.. لعل من سمات الوعي أن نرى أن رسولنا ﷺ ـ وهو يبين بهذا التوجيه المتميز ما أنزل الله إلى الناس في كتابه الكريم ـ كان يمارس بنفسه وبمن معه من المؤمنين مهمة البناء الفريدة في التاريخ، وإنها للأسوة الحسنة المباركة. اللّهم اجعلنا في طاعة رسولك عليه الصلاة والسلام التي هي من طاعتك يا رب العالمين!!

* * *

مقولة البر.. على طريق البناء

علاقة آية البر بالكلمة الطيبة

«١»

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٧١].

كانت نُقلةً عظيمةً على ساحة البناء والإنماء تلك التي يراها الناظر المتأمل في آية البر هذه من سورة البقرة. إذ بينما يدور الحديث في المجتمع عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام تطلع علينا الآية الكريمة بنفي قاطع لمقولة أن البر هو تولية الوجوه دون أمر اللّه إلى جهة من الجهات مشرقاً كانت أو مغرباً، ثم ببيان جلي ـ في أعقاب ذلك لحقيقة البر ـ كما سلف القول في مناسبة خلت.

ومن خلال هذا البيان وقفنا المعلم القرآني على أن بناء الإنسان بفكره وثقافته وتصوراته، وبناء المجتمع في ميادينه الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية من ذلك بحسبان.

فكلمة البر ليست لعقة على اللسان يتندّر بها أولئك الغافلون أو المتغافلون.. ولن يدعها القرآن أن تكون مدخلاً للعبث الكافر تمارسه طائفة من أهل الكتاب وخصوصاً اليهود.

فالبر ـ وهو أرومة الخير الجامعة ـ: إيمان باللّه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين؛ وما أعظم أن يبنى الإنسان على هذا الإيمان الذي يهبه الاستقرار النفسيَّ، ويحمله على استقامة الخلق عند التعامل مع الآخرين، ويدفع به إلى ميادين العمل والجهاد، واثقاً مطمئناً مستنير العقل والقلب، ويجعل منه أكرم قيمة على ساحة البناء وتنمية مقومات الوجود الذاتي للمجتمع والأمة.

والبر ـ مع كونه بناءً للإنسان ـ بناءً للمجتمع على التعاون والتكافل بحوافز من العقيدة وابتغاء مرضاة الله عز وجل ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

تلك هي واقعية الإسلام ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ إن الإنسان لحب الخير ـ وهو المال ـ لشديد، ولكن الإيمان يرقى بالمسلم إلى حيث لا تحول غريزة حب المال دونه ودون معاونة إخوانه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ومن هم بحاجة إلى تحرير رقابهم من العبودية.

كل ذلك إسهاماً في إنشاء المجتمع المتماسك القوي، الذي لا تعوزه الأخوة المثلى التي تحقق مقتضيات الإيمان بالتعاون المجدي، وتنهض به ليكون المجتمع الأمثل اقتصاداً واجتماعاً، ووعياً لمستلزمات الواجب على صعيد البناء الذي لا بد له من تضافر الأيدي والعقول وكل الكفايات في سمو أخلاقي عند السلوك وممارسة شؤون الحياة.

وهذه الواقعية التي نشير إليها تعني حكمة الله في تكليف الإنسان، وأنه خوطب بهذا التكليف بوصفه إنساناً خلق ـ وبين جنبيه مع الفطرة التي ولد عليها ـ كثير من الغرائز، ومنها غريزة حب المال التي تحفز إلى العمل والإنتاج.

وهنا يأتي سمو العقيدة في جعل الإنسان يتطلع إلى ما هو أغنى وأغلى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾[الإنسان ٨-٩].

وفي ضوء ذلك جاء البيان النبوي يثبت هذه الحقيقة العظيمة على طريق البناء فقال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «**أفضل الصدقة أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر**» ولما كانت طبيعة البناء تقتضي البدء من الخلية الأولى، فقد جاءت الآية على ذوي القربى أولاً، ثم ثنت بالآخرين، وقد ثبت في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: «**الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك**» أخرجه من رواية سلمان ابن عامر: أحمد والنسائي والبيهقي وغيرهم وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

صورة أخرى من صور البر... والبناء

«٢»

البر: هذه الكلمة الجامعة التي لا يخفى انعكاسُها على بنية الفرد والمجتمع، تنقل بنا من خلال الآية الكريمة (آية البر) في سورة البقرة من بيان أن من البر إيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب: إلى أن من البر أيضاً إقامة الصلاة وإيتاءَ الزكاة، فالعمل لا بد أن يكون قرينَ الإيمان، وإلا كانت دعوى الإيمان: دعوى بلا دليل.

وجاء التعبير القرآني على غاية التناسب مع قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

وهذا ما يعطي الوجاهة لما ذهب إليه كثير من المفسرين من تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾. الآية. بأنه: ولكنَّ البرَّ برُّ من آمن.

وعلى هذا: فالبرُّ برُّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وليس ذلك فحسب، بل وآتى المال على حبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة. وإقامة الصلاة: إتمام أفعالها في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وكل أحكامها على الوجه الشرعي المطلوب.

وإذا كانت الصلاة صلةً بين العبد وربه، فما أعظم ما تثمره من استقامة وخيرية في السلوك، تجعل من الفرد اللبنة الصالحة في المجتمع الفاضل المنشود!.

أما عن إيتاء الزكاة: فالراجح ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد بالزكاة الفريضة التي هي ركن من أركان الإسلام، وإن كان بعض المفسرين قد ذهب إلى أن المراد زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة المرذولة كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] . غير أن الكثرة الكاثرة من المواطن التي اقترن فيها إيتاء الزكاة بإقامة الصلاة في القرآن الكريم، وما يوحي به جو الآية من هذه الساحة المباركة لمعنى البر، وهي ساحة تشمل ـ فيما تشمل ـ سمات من بناء الإنسان وبناء المجتمع: كل هذا يعطي أن المقصود بالزكاة هنا: الفريضة، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام، وأهم ركيزة من ركائز الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع المسلم؛ لما أنها تؤدَّى وهي حق في المال، لا استعلاء فيها ولا استكبار!!

وعلى هذا تكون الآية قد جاءت على ذكر النافلة والتطوع في التكافل الاجتماعي والاقتصادي والبر والصلة بدءاً من أولي القربى، ثم جاءت على ذكر الفريضة وهي الزكاة.

ومن حكمة ذلك ـ والله أعلم ـ أن يشعر المسلم ـ وهو يسهم في عملية البناء على ساحة المال والتعاون - أن في المال حقاً سوى الزكاة، وأن تثمير المال وتحريكه يؤول بالخير على اقتصاد الفرد والمجتمع ويكون في ذلك مرضاة الله تعالى، إذا التزمت الحقوق، وسما صاحب المال بنظرته إلى ما وراء الحيازة الفردية والأنانية في ذلك.

وقد روى ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول الله ﷺ : أفي المال حق سوى الزكاة؟ قالت: فتلا علي: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ الآية. وفي رواية لابن مردويه عن فاطمة أيضاً قالت: قال رسول الله ﷺ : «في المال حق سوى الزكاة» ثم قرأ: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفي حديث قادم نسعد إن شاء الله بقبسات أخرى من عطاء الآية على طريق البناء والنماء. ولله عاقبة الأمور.

* * *

آية البر... والكلمة الطيبة في الأخلاق.. والبناء

«٣»

أرأيت أولئك البررة الذين تناط بهم عملية البناء الكبرى كما أرادتها رسالة الإسلام، العملية التي تتناول النفوس، وتتناول المجتمع بكل ميادينه ومقومات وجوده الحقيقي.. أرأيتهم.. إنهم المؤمنون الصادقون. وفي الوقت نفسه هم الذين يستعلون على الإمساك والشح، فيبذلون ويؤتون المال ـ على حبه ـ من يستحقه في نظر دعوة الإسلام، كيما يستوي المجتمع على سوقه تعاوناً وتضامناً وتكافلاً، انطلاقاً من عقيدة تحمل صاحبها على البذل ابتغاء مرضاة الله تعالى وطمعاً في مثوبته، لا رياء وسمعة، أو خوفاً من عصا السلطة التنفيذية.

وهم بعد هذا وقبله: يحسنون التعامل مع الله تعالى عبادة وخضوعاً لأمره، فيقيمون الصلاة على وجهها المشروع المرضي عند الله، ويؤتون الزكاة التي هي فريضة وحقٌ في المال لا اختيار للمكلَّف بشأنها؛ لأنها حق مستحقيها في المال. وفي ذلك ما فيه من الإسهام في استقرار المجتمع المسلم وقدرته على النهوض بأعباء الرسالة لا في دنيا المسلمين فحسب، ولكن في دنيا الإنسان أينما كانَ. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[فصلت٣٣].

وهؤلاء البناة الذين نخصهم بالحديث: لا بد أن يكونوا متخلّقين بأخلاق الإسلام، تنمو في نفوسهم مع نموّ مسؤولياتهم على صعيد الفرد والجماعة، وقد ذكرالله تعالى في الآية أن من البر الوفاء بالعهد والصبرَ في البأساء والضراء وحين البأس. ذلكم قوله تعالى بعد ذكر الإيمان، وإيتاء المال مستحقيه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾.

إن تكامل البناء يقتضي أن يكون للخلق الإسلامي ـ وهو خلق يرتبط بالعقيدة وينأى عن النسبية التي يقول بها المنحرفون ـ إن تكامل البناء والفسح لمقومات البناء المحكم الشامل: يقتضي أن يكون للخلق الإسلامي سلطان في المجتمع، يضبط السلوك، ويحفظ التعامل من العبث والخيانة وإضاعة الحقوق، كما يضمن ـ على ساحة الثقة المتبادلة والود ـ القدرة على الاستمرار المشترك ومواصلة المسيرة الخيّرة في تحمل أعباء البناء، بذلاً وتضحية وجهاداً بالمال والنفس.

ومن عيون أخلاق الإسلام: الوفاء بالعهد والصبر. الوفاء بالعهد مع الله ومع الناس، كما في قوله تعالى في مطلع سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [١]. وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم وفي سورة آل عمران: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[٧٦]. وفي سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾[٢٠].

وقد مر بنا في صفحات سبقت ما جاء في وصايا سورة الأنعام من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ [١٥٢] ومواطن ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

من أجل هذا بيَّن ﷺ وهو يربي الإنسان المسلم القادر على البناء.. بيَّن أن المنافق يكذب ويخون ويفجر ولا يفي بعهد، وتلكم من أسوأ عناصر الهدم في المجتمع، ذلكم قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» وفي رواية أخرى: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر». أخرجه الشيخان وأحمد وغيرهم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أرأيتم إلى سمات البر عند المؤمن ونقيضها عند المنافق.

* * *

الوفاء بالعهد.. والبناء

«٤»

في ظل رحلة مع واحد من المعالم القرآنية، سعدنا بعطاء الكلمة الهادية من خلال آية البر في سورة البقرة التي نراها في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ .

في هذه الرحلة المباركة وقفنا عند لمحات مضيئة ـ وكل القرآن ضياء ونور ـ من قوله تعالى في صفة أهل البر: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

وأود أن أشير هنا إلى أن إفراد الوفاء بالذكر ومن بعده الصبر، في قوله تعالى عطفاً على ما سبق من أركان الإيمان والإسلام وما هو منهما بسبيل: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ هذا الإفراد يدل على أن من العهد بين الله والإنسان ما تقدم في الآية الكريمة من كل المقومات التي لا بد أن يبنى عليها المؤمن؛ كيما يكون قادراً على صياغة المجتمع، وتوفير المناخ الملائم لتكوين قدرته الذاتية في ظل قيم الإسلام. وأهل البر الذين هم المؤمنون الصادقون الموفون بعهدهم إذا عاهدوا.

وقد أشرنا فيما مضى من القول إلى بعض الآيات الكريمة المتعلقة بالوفاء بالعهد، الأمر الذي يعطي بلا ريب، أن الوفاء بالعهد هنا يتسم بالعموم، فهو وفاء المؤمن بعهد الله، ووفاؤه بعهد الناس والأمة.

ولعل قضية العهد والوفاء به وأن ذلك من سمات المؤمن، تكون في الحسبان، بحيث تأخذ حجمها الحقيقي على صعيد التربية والإعداد في بناء إنسان المستقبل.

فكلمة التوحيد موثق بين الله وبين المسلم، والوفاء بهذا الموثق يقتضي أن يأخذ حقُّ « لا إله إلاالله » أبعاده العملية في دنيا العقيدة والتشريع والأخلاق، وذلك ـ لا غيره ـ طريق البناء الذاتي للأمة ثقافة وعلماً وقوة تثبت وجودها في ميادين الصراع والتحدي.

وفي ظل الكلمة الطيبة كلمة التوحيد، لا بد أن يبنى الجيلُ على أن للأمة في أعناق أبنائها وبناتها عهداً ليس من الإيمان ولا من الأخلاق أن يُخلفوه، والوفاء به دليل صدق الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس.

إن قول الله تعالى في تحديد السمات الأساسية لأهل البر:﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ ينبغي أن يكون حافزاً من أكرم الحوافز وأعمقها، يرتفع بالإنسان المسلم ـ أياً كان موقعه والثغر الذي أقامه الله عليه ـ إلى المستوى اللائق بأمة تنشد النهوض من عثار، وتعمل على قطع المسافة بين الواقع وبين ما يجب أن يكون في أقصر مدة ممكنة وهي على هداية ونور؛ لأن دولاب الزمن يدور، والشمس في شروقها وغروبها لا تنتظر متخاذلاً، ولا تتوقف من أجل الخاملين.

وإذا كان الوفاء بالعهد ـ جداً وجهاداً وتحملاً للمسؤوليات الكبار ـ من الخلائق المضيئة الفاعلة على طريق المؤمنين، فإن من خيانة الموثق، والنكث بالعهد، والعدول عن طريق أهل البر، أن يكون همُّ الفرد أياً كان موقعه تطوافاً حول نفسه، وتخلياً عن الإسهام في عملية البناء الذاتي للأمة، وأين ذلك من قوله تعالى:﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ وسبحان الموفق للعمل والالتزام.

* * *

آية البر... والكلمة الطيبة
الصبر على تبعات البناء
«٥»

المؤمن وهو يقطع رحلة البناء في هذه الحياة تكون له النظرة المتكاملة التي لا تقيم الحواجز بين الإيمان والعمل، أو بين العبادة الفردية، والعبادة بكل ما من شأنه تقوية البنية الذاتية للمجتمع المسلم.

وهو بهذه النظرة يعلم حق العلم أن هذه التجزئة مرفوضة في منطق الإسلام الذي شاء الله أن يرتضيه لعباده ديناً، يكون لهم منهج حياة تتسع للفرد والجماعة، وللدنيا والآخرة. وشواهد ذلك من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، والواقع العملي في قيادة ركب الحياة بهذا الدين تعزُّ على الحصر.

والعهد قريب بآية البر في سورة البقرة حجر الزاوية في هذا، حيث أشفينا على خاتمتها.

وفي أعناق المدعوين لتحقيق ذلك في كل الميادين: عهد مع الله عليهم أن يصدقوا به، وأمانة في أعناقهم من الواجب المؤكد أداؤها بموضوعية وشمول، أداءً لا يغادر شأناً من شؤون الحياة دقَّ أو جَلَّ.

وقد جعل الله من سمات أهل البر في سورة البقرة بجانب الإيمان والعمل، والإسهام بكل ما من شأنه إنشاء القوة الذاتية للأمة: أنهم من الأوفياء بالعهد فقال تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

إنه التكامل بين الإيمان والعمل والأخلاق، وليس ذلك بدعاً في دين أراد الله أن يكون للناس منهج حياة.

والأمر الرائع حقاً: ما نرى من واقعية المنهج الرباني في توجيه الإنسان؛ فما جاء في آية البر والوفاء بالعهد إيماناً وعملاً وسلامة تطبيق، لا يخلو من المصاعب، ولا يسلم طريقه من العقبات؛ فقد يبتلى المسلم بالفقر، وقد يبتلى بالمرض أو بهما جميعاً، ناهيك عما يمكن أن يناله من الأذى ـ وهو يغذُّ السير على طريق الحق ـ وما يقتضيه الجهاد من بذل للأنفس والأموال.

من أجل هذا ـ والله أعلم ـ جاءت الآية على هذين الخلقين العظيمين معاً وهما: الوفاء بالعهد والصبر، فقال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

وتبعات الوفاء بالعهد ـ على الشمول الذي أسلفنا القول فيه ـ لا بد لها من الصبر. والصبر المذكور في الآية: صبر في البأساء، وهي حال الفقر، وصبر في الضراء وهي حال المرض والأسقام، وصبر في حال القتال على ساحة الصراع مع أعداء الله، وهو الصبر الكائن حين البأس.

فلا الفقر ولا المرض ولا سهام الموت الصائبة في ميدان القتال بصارفة عن متابعة السير في مرضاة الله تعالى﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ بل على العكس، يجد المؤمن في الابتلاء باباً عريضاً من أبواب الفضل الإلهي والفوز بما أعدالله للصابرين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة:١٥٥-٥٧] أما عن الصبر حين البأس فاعتقاد المؤمنين أن أنفسهم وأموالهم مباعة لله ولهم الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾ [التوبة:١١١].

* * *

البر... والكلمة الطيبة

الصبر على تبعات البناء

«٦»

في كلمات سلفت هدانا المعلم القرآني إلى مكانة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وأن ذلك من مقومات الوجود الذاتي للإنسان والمجتمع في المنهج الرباني.

وألمحنا في عجلة من القول إلى أن الصبر في البأساء والضراء: باب مبارك يلج منه المؤمن إلى ساحة فضل الله وكريم عطائه وما أعد لعباده الصابرين﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ [الزمر:١٠].

كما ألمحنا إلى أن المؤمنين وهم يجاهدون في سبيل الله ويصبرون حين البأس: يتحركون في ميادين القتال وهم يعتقدون أن نفوسهم وأموالهم مباعة لله تبارك وتعالى، والثمن هو الجنة ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾.

وعليهم أن يتذكروا أنه لا أحد أوفى بعهده من الله، لذا خاطبهم جل وعلا بقوله: ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. بعد قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

وما من ريب في أن هذه العقيدة هي التي حملت أولئك الميامين الأُوَل إلى ميادين القتال، وكانوا صابرين حين البأس محتسبين، واستطاعوا من وراء ذلك أن يحرروا الإنسانية من أغلالها، وأن يرسموا لها طريق النجاة، وأن يفسحوا لكل العاملين المؤمنين في بناء حضارة الإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ ونقول: «حضارة الإنسان»

ونعني تلك الحضارة التي لم تهمل جانباً في الإنسان لحساب جانب آخر؛ كالذي نرى في حضارة اليوم حيث تأليه المادة ـ عند الآخرين ـ وانحسار الروح، والتعفية على الأخلاق، أو الحكم بنسبيتها، مما لا تخفى آثاره على ذي بصيرة.

وعلى هدي المعلم القرآني في آية البر، وقوله تعالى في خواتيمها: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أؤكد ما قلته في مناسبات خلت أن الصبر في منهج القرآن: ليس صبر المتواكلين المتخاذلين، وإنما هو الصبر الذي يمثل الرضى بقدر الله، والقوة الدافعة إلى تحمل التبعات والاستهانة بالعقبات، لأن ما عند الله خير وأعظم أجراً. فالمؤمن يصبر على البلاء، ويصبر على تبعات التغيير إلى ما هو الأفضل، ولا يسأم من البذل على ساحة المسؤولية، ولو كان ذلك النفس والمال.

إن الصبر الخانع المستخذي ليس من الإيمان ولا من أهله في شيء، ولكن الصبر المراد: صبر أهل البر المجاهدين الصادقين الذين يجمعون إلى الإيمان الراسخ، عملاً صالحاً لا ينحسر عن ميدان من ميادين البناء، وهم موفون بعهدهم إذا عاهدوا، صابرون على مستلزمات الإيمان والعمل والوفاء بالعهد. أما الذين يفهمون الصبر على غير وجهه فعليهم أن يذكروا وهم يرون واقع المسلمين مع أعدائهم قول الشاعر:

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان: عَير الحيّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برُمته ... وذا يشجُّ فلا يرثي له أحدُ

إن طريق التحويل إلى حيث الفجر بعد الظلام، والتحرر من العبودية إلا لله عز وجل: طريق يرتادها البررة المجاهدون الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

والله ولي التوفيق.

* * *

البر... والكلمة الطيبة

الصدق.. والبناء

«٧»

بعد قوله تعالى:﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ختمت آية البر بقوله جل وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

الذين صدقوا والذين هم المتقون: هم أولئك الذين ذكرت آية البر من إيمانهم وعملهم وخلائقهم ما ذكرت. وأجد لزاماً أن أعود إلى الآية الكريمة كيما يكون ذلك عوناً لنا في الكشف عن وجه الارتباط بين ما ختمت به الآية، وما بدئت به. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴿١٧٧﴾﴾ .

لقد أوضحت الآية بما لا يقبل الشك أن الصادقين المتقين هم أولئك الذين زانتهم صفات أهل البر التي أشرقت معالمها في هذه الآية الكريمة؛ بدءاً من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، ومروراً بإتيانهم المال ـ على حبه ـ أصحابه المستحقين إسهاماً في بناء المجتمع على التكافل والتعاون في ظل أخوة الإسلام، وانتهاءً بوصفهم بأنهم الموفون بعهدهم إذا عاهدوا، وأنهم الصابرون في البأساء والضراء وحين البأس.

ولقد تكررت كلمة أولئك: تكريماً لهؤلاء البررة البناة، وبيان ما لهم من خصائص الخير﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ .

أرأيت إلى هذا الإطار النوراني الذي أسعدنا به المعلم القرآني من خلال آية البر، حيث التحديد بأن البر ليس تولية الوجوه قِبَل المشرق والمغرب بعيداً عن امتثال أمر الله، ولكنه الإيمان والعمل، وسلطان الأخلاق على السلوك؛ وذلكم هو التكامل في مقوّمات البناء، البناء الذي لا يفارق فيه الإيمان العمل، ولا تجفو مسيرة السلوك الأخلاق.

وإذا أردت الصادقين: فتلك خصالهم، وإذا أردت المتقين فتلك سماتهم﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ .

إن الناقد البصير الذي يرى ما يكتنف طريق التغيير إلى ما هو الأقوم من أهوال ومصاعب، لا يلبث أن يداخله ـ مع التصور لمشقات التغيير ـ نوع من الطمأنينة إلى المستقبل، لما أن جنبات المسالك واضحة، والمنهج الرباني في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة و السلام، لم يدع المسلمين في حيرة من أمرهم، وما عليهم إلا أن يعوا بحق دلالة مواقفهم مع الله وأن يبنى الجيل المسلم على عزيمة الالتزام، والوفاء بالعهد، والصبر، على مستلزمات الإيمان والعمل والصبر؛ وذلك طريق الصادقين المتقين﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ .

* * *

البر.. والكلمة الطيبة

البناء.. وذاتية التصور والتفكير

«٨»

الخطوات المتواضعة التي كانت لنا مع سورة البقرة في الآية السابعة والسبعين بعد المئة منها وهي الآية المبدوءة بقوله تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ والمختتمة بقوله جل وعلا: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ .

هذه الخطوات: ينبغي لها أن تشدنا على صعيد العقيدة والبناء الثقافي والاجتماعي إلى ما كنا ألمحنا إليه من أن الناظم الذي ينتظم هذه الآية ـ وهي سورة مدنية ـ وبما جاء في سورة إبراهيم ـ وهي سورة مكية: من المثل الذي ضربه الله تعالى للكلمة الطيبة كلمة التوحيد حيث قال تعالى خطاباً لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أو لكل من يعقل الخطاب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾[٢٤-٢٥].

فالآيتان المكيتان في سورة إبراهيم: توضحان البُعد العظيم لكلمة التوحيد «لا إله إلاالله محمد رسول الله» وأن هذه الكلمة نبع سلسبيل مبارك من العطاء لا ينتهي؛ والعقيدة الصحيحة هي الأساس المكين الذي يقوم عليه البناء التشريعي والأخلاقي والثقافي، وهي التي لا يَسلَم للأمة ـ إلا بها ـ توازن الأمور على صعيد البنية القوية المتكاملة، وتنمية الطاقات التي تكون وقود الكيان المتميز للمجتمع الأمثل والوجود الذاتي للأمة المسلمة.

ويشاء الله جلت حكمته أن تُلقى على طريق المجتمع المسلم في المدينة صورة من صور التطبيق لهذه الحقيقة في أبعاد كلمة التوحيد، فتكون شرعة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وتتنزل الآيات ومنها آية البر في سورة البقرة التي تجعل المسلمين على بينة من أمرهم وهم يبنون مجتمع العقيدة..

على بينة من أمرهم في حقيقة العبادة، وأن الأساس الذي تقوم عليه هو امتثال أمر الله عز وجل.

أجل: وعلى بينة من أمرهم في تعريف البر، وهو أرومة الإيمان والخير، ومن هم أهل البر الصادقون المتقون، وعلى بينة من أمرهم في وجوب أن تكون لهم طريقة التفكير الذاتية المتميزة، فلا يميلون مع الريح حيث تميل، ولا يتزحزحون عن مواقفهم لكلمات أطلقها يهودي أو متهود ديدنه الحقد والدسّ وقلب الحقائق.

فهم يتلقون عن الله وعن رسول الله المبيِّن عن الله ما أراد، وعملية البناء التي يحملون عبء إنجازها: قوامها إيمان، ثم عمل يتمدى حدود الفرد إلى الجماعة وتمتين صروحها.

وأين من هذا: التلفت والتبعيَّة في الفكر والتصور.

إنه الخط النوراني الذي نشعر من خلاله بالصلة بين ما جاء في سورة مكية هي سورة إبراهيم وبين ما جاء في سورة مدنية هي سورة البقرة: دليل المنهج الرباني المتكامل ترسمه القدرة الإلهية بآيات قرآنية تتنزل خلال ثلاثة وعشرين عاماً على النبي الأمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

ألا وإن الواقع في دنيا المسلمين وفي العالم كله يطرح اليوم من الحقائق ما يزيد المؤمن يقيناً بأن من الأسلحة الماضية في تصحيح المسار، والعودة إلى حيث تكون أمتنا صانعة القرار، التهيج لأن يأخذ التدبر للقرآن موقعه الطبيعي في حياة الفرد

والجماعة في ذكر دائم لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

* * *

البر... والكلمة الطيبة
من البيان النبوي.. في البناء
«٩»

ما وقفنا عليه المعلم القرآني في سورتي إبراهيم والبقرة. من العلاقة المحكمة بين مكي القرآني ومدنيِّه حيث التكامل بين العقيدة وعظيم أبعادها وسلطان فاعليتها في بناء الإنسان والمجتمع.. وبين تطبيق ذلك على صعيد الواقع والوجود الحقيقي... ما وقفنا عليه المعلم القرآني في هذا الإطار.. يحملنا على أن نعود لنتذكّر مرة أخرى بما لا يخفى على ذي بصيرة من عمق البيان النبوي لكتاب الله عز وجل، وكيف أن هذا البيان يطرح بأمانة وإشراق الصيغ العملية التي تتحرك في دنيا الناس وتقود بالإنسان عملية تغيير الواقع والانتقال بالإنسان والمجتمع إلى ما يجب أن تكون، كما ثبت في الحديث الصحيح من ضربه ﷺ المثل للمؤمن بتلك الشجرة الطيبة وهي النخلة، فكان ذلك إفهاماً لكل الذين تندبهم الأقدار ليحملوا عبء رحلة البناء في دنيا الإنسان ما به يستعينون على الإبلاغ ودخول البيوت من أبوابها في خطاب الإنسان.. وبياناً للعاملين على كل صعيد: أن الحركة الفاعلة في ظل العقيدة تنمو بنمو الإيمان وتزداد بزيادته، نفعاً لعباد الله، وتمكيناً للأمة في الأرض.

ويتضح الأمر أكثر وأكثر إذا ذكرنا أن الشجرة الطيبة هذه وهي التي أصلها ثابت وفرعها في السماء والتي تؤتي أكلَها كلَّ حين بإذن ربها ـ كما جاء في سورة إبراهيم ـ ضربها الله سبحانه مثلاً لعقيدة التوحيد «لا إله إلا الله» .. تقريباً للأذهان وتيسيراً للفهم من طريق ضرب المثل.

وإذن: فالبيان النبوي ينتقل بالأمة إلى الصورة الناطقة العملية.. إلى صورة الوجود الذاتي للأبعاد التي هي من ضياء عقيدة التوحيد..

أجل ينتقل إلى الإنسان المؤتمن على أن تؤتي هذه العقيدة خيرها العميم، ونفعها الذي يُسعد من يهتدي بهداها في الدنيا وفي الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وإنها للدعوة إلى ترجمة الإيمان إلى عمل، وصياغة الفرد والمجتمع على هدي العقيدة الربانية، في شمول وسلامة في المنطلَق وصدق في الوجهة يُشعر بها قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٥٢] وتشبيه رسول الله تلك الشجرة الطيبة بالمؤمن.

هذه واحدة: وأما الثانية، فهي أن رسول الله ﷺ عندما طلع على الأمة بهذا البيان، وأشعر المؤمنين بأنه المسؤول الحقيقي عن رسالة البناء المرتبطة بعقيدة التوحيد.. لم يكن يطرح الأفكار على طريقة الفيلسوف يصوغ النظرية بصرف النظر عن ارتباطها بالواقع والقدرة على تغييره إلى ما هو الأقوم والأفضل، ولكنه عليه الصلاة والسلام ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ كان يؤدي أمانة البيان لمعالم الكتاب الكريم وهو يمارس عملية بناء الإنسان والمجتمع ، ومن وراء ذلك بناء الأمة والدولة، ويعيد للإنسانية مسالك الحضارة التي تشاد على العقيدة وتأخذ بأطراف العلم وتحكمها الأخلاق..

وهكذا يكون البيان الذي صحبناه مع مجموعة من الآيات في سورتي إبراهيم والبقرة، بياناً متصلاً بعملية التغيير أوثق اتصال، محكماً في ربط مهام الرسالة بأبنائها أيما إحكام ، وأن المؤمن عنوان عمل وحركة على كل صعيد بما يسعد في الدنيا ويوم الدين.

والحمد لله الذي أكرم خير أمة أخرجت للناس بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقلد رسوله محمداً أمانة بيانه بالقول والفعل والإقرار من خلال الدعوة وممارسة بناء الحياة.

البر... والكلمة الطيبة
الكلمة الخبيثة.. والبناء

إذا كانت عقيدة التوحيد في تواؤمها مع الفطرة وإنسانية الإنسان، وكونها منبع الخير والعطاء وسعادة الدنيا والآخرة، قد ضرب الله لها مثلاً شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؛ فإن كلمة الإلحاد الكافرة بما تقوم عليه من تنافر مع الفطرة، وعدوان على إنسانية الإنسان، وجحود للخالق العظيم مع وضوح الآيات الدالة على وجوده وقدرته جل وعلا. إن هذه الكلمة الخبيثة ضرب الله لها مثلاً شجرة خبيثة مبتورة عن الأرض لا تغتذي، ولا تقدر على العطاء، ذلكم قوله تعالى في الآية السادسة والعشرين من سورة إبراهيم: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

والكلمة الخبيثة اليوم عنوان على ضلالات تبدأ من الاعتقاد وتشمل ـ فيما تشمل ـ الإصرار على صياغة الفرد والمجتمع وفق هذا الضلال والعياذ بالله.

والمسلمون اليوم ـ وقد قرّب العلم بين المسافات، ويسَّر وصول الكلمة طيبة كانت أو خبيثة ـ مدعوون إلى أن يتبصروا أمورهم من خلال هذه المقابلة في القرآن الكريم، حيث نرى هنا صورة من صورها.

فأي الطريقين يسلكون؟ ليس المخوف ـ دائماً ـ أن يتخلى المسلم عن كلمة التوحيد ينطق بها لسانه، ويتبدّل بها كلمة خبيثة تحمل الوثنية والكفر.. ولكن المخوف هو الوقوع في الأفكار والنظم التي تنبثق عن تلك الكلمة الخبيثة التي ضرب الله لها المثل لمزيد من البيان والإيضاح بشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

إنها شجرة خبيثة لا تتفق مع الفطرة بل تجفوها وتحاربها، ولا تضمن إنسانية الإنسان، بل تقف الموقف العكسي المضاد، عدا عن أنها قبل ذلك كله تجاهر خالق السماوات والأرض وفاطر الإنسان بالعداوة والجحود.

وإذا كانت هذه الأسطر المعدودات لا تتسع للتفصيل، فحسبي أن أشير هنا إلى أن مقابلة الطيبة بالخبيثة في هذه الآيات من سورة مكية هي سورة إبراهيم: لمحة من لمحات الإعجاز في هذا الكتاب الكريم. فكم يطرح على طريق المسلم اليوم من أفكار على صعيد الثقافة والاجتماع والاقتصاد هي السم الناقع بلا ريب في ميزان المثقفين المنصفين، وكم يزيِّن للأمة الباطل ويلبس لبوس الحق.. والمعتصَم من ذلك: استمساك بالكلمة الطيبة: عقيدة وشريعة وسلوكاً كما أراد ربنا تبارك وتعالى وكما رضيها لنا ديناً وأسعدنا بها منهج حياة. فأي عاقل يترك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويتجه إلى شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار؟!!

الا إن الأمر جدٌّ لا هزلَ فيه، والامتحانات الصعبة التي تواجه الأمة اليوم جديرة أن توقظ الهمم وتحوّل الشراع إلى استمساك أكثرَ بكل عطاء الكلمة الطيبة في بناء الفرد والمجتمع، والخروج بالأمة من مآزق يذوب لها القلب وتتفطر لها الأكباد... والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

البر... والكلمة الطيبة

قيم وموازين ـ على طريق البناء

اتسمت معالم القرآن على صعيد بناء الفرد والجماعة بالكثير من العمق والتحديد، سواء من ذلك ما كان على صعيد التصور وطريقة التفكير، وما كان على صعيد العمل والحركة في أي ميدان من الميادين.

فالذي ألمحنا إليه من قريب من أن الكلمة الخبيثة هي على النقيض من الكلمة الطيبة، فتلك كشجرة طيبة تغتذي وتعطي؛ لأن أصلها ثابت وفرعها في السماء. ولا يقتصر نفعها وخيرها على جانب دون آخر ولا ينحسر عن زمان ولا مكان ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وهذا طبعاً في ميادين العقيدة وكل ما له صلة ببنية المجتمع في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والسلوك.

أما الكلمة الخبيثة: فهي مبتورة عن العطاء لا خير فيها ولا نفع في ميزان الله عز وجل، وعدوانها على فطرة الإنسان وإنسانيته واضحة لكل ذي عينين، لما أنها شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

غير أن الذي لا يمكن إنكاره: أن الكافر كثيراً ما يقوم بما فيه نفع في الدنيا، وهنا تأتي نقطة العمق والتحديد التي أشرنا إليها؛ فالعبرة ليست بالعمل نفع صاحبه فيه أو تعدى ذلك إلى الآخرين فحسب، ولكن العبرة بأن يقوم هذا العمل على العقيدة التي هي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله ــــ رسول الله».

ولا بد أن يكون واضحاً عند المسلم من أول الطريق: أن تحديد القيم إنما يكون عن الله عز وجل وعن رسوله عليه الصلاة والسلام؛ ففي سورة الفرقان– وهي سورة مكية– يقول الله تعالى بدءاً من الآية الحادية والعشرين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ

لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴿٢١﴾ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴿٢٢﴾ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴿٢٣﴾﴾.

هذا التعنت الذي تعرض الآيات بعض صوره في طلب إنزال الملائكة وما يكون لأولئك الجاحدين المتعنتين يوم القيامة، كان يرافقه منهم في الدنيا ألوان من عمل الخير كالصدقة وصلة الرحم، وقِرى الضيف وإغاثة الملهوف، و اللّه تبارك وتعالى يثبت لهم ذلك، ولكنه يبين أن ذلك لا وزن له يوم القيامة، وقدمنا ـ أي وعمدنا ـ إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً.

لقد أثبت لهم العمل، غير أنه عملٌ قد فقد شرط قبوله والمجازاة عليه في الآخرة وهو العقيدة الصحيحة؛ لذا جعله هباء منثوراً، يستوي مع هذا الهباء الذي قد يلمح من الكوة التي عليها الشمس. أما جزاؤهم في الدنيا فحاصل، إذ إن كل امرئ يذكر بعمله، وقد يكون الجزاء أموراً مادية أو معنوية إلى غير ما هنالك.

إن أمتنا وهي تشق طريقها لاستئناف رحلة البناء الذاتي من جديد، مدعوة إلى تبيين المعالم والمقومات الحقيقية لمن تناط بهم تلك المرحلة التي تشعبت ميادينها ومسالكها، فلها أن تفيد من الإمكانات والطاقات دون غفلة عن ارتباط العمل بالعقيدة... واللّه ولي التوفيق.

* * *

من صور البناء الحضاري
في البيان النبوي
«١»

لقد كان فضل الله عظيماً على الأمة المحمدية بالقرآن، وكان فضله عظيماً ـ مرة أخرى ـ وهو ذو الفضل العظيم ـ حين ائتمن نبيه محمداً ﷺ على بيان هذا القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤] .

من هنا كان التناسق واضحاً كل الوضوح بين عموم رسالة القرآن وهدايته التي تناولت ـ فيما تناولت ـ جوانب النفس الإنسانية كافة، والحياة بشتى ميادينها وأبعادها، وعلاقة الإنسان بالكون والحياة.. وبين بيان الرسول عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله وإقراره وسلوكه وأخلاقه والتربية بالأسوة، وكل ما هو من ذلك بسبب.

فلقد تجمَّعت له ـ بعناية الله وحكمته ـ كل عوامل البيان للمنهج الرباني؛ فلم يتقاصر عن أيِّ أمر من أمور التمكين للمؤمنين في الأرض بعد فقههم للرسالة وأبعادها وبناء القدرة الذاتية عند الفرد والجماعة في المجتمع، والدلالة على كل ما يقهر عوامل الضعف أمام التحديات ـ وما أكثرها ـ ويسعد في العاجلة والآجلة؛ حتى كانت سيرته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ترجماناً عملياً لرسالة السماء التي تنزَّل بها جبريل عليه السلام، وأسوة حسنة يعشو إلى ضوئها من تحوطهم عناية الله، فيتابعون على هديه نشر الدعوة ومسيرة البناء الحضاري المكين.

أقول هذا وأنا بسبيل خطوة أخرى نسعد معها بالرحلة المجلى مع قوله تعالى في سورة محمد ﷺ ـ سورة القتال ـ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [٢٢- ٢٣].

فلقد كان من هديه ـ ﷺ ـ وهو يستنقذ الإنسان من وهدة الجاهلية ويبنيه من جديد على الإسلام، ويجمع شتات المجتمع ليحكم بناءه على هذا السنن من لبناته الأولى وخلاياه المتقدمة.. كان من هديه ـ جزاه الله عن الأمة خير الجزاء ـ أن أكَّد وجوب صلة الرحم بعد بيان موقعها العظيم، وأن من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله، واستشهد لذلك بهاتين الآيتين الكريمتين سالفتي الذكر.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ قال: نعم، أما ترضين أن أصِلَ من وصَلك وأقطعَ من قطعَك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك». ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

وجاء في رواية للبخاري: «من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته».

ألا إن رسول الله ـ وهو المبلغ عن الله ما أراد والمؤتمن على تعليم الكتاب والحكمة والتزكية ـ يعلِّم جنده المؤتمنين على حمل عبء البناء في ضوء الرسالة الخاتمة، وتحقيق الوجود الذاتي للمجتمع الأمثل في المدينة ليكون القدوة في إحكام البناء.. يعلِّمهم أن الخطوة الثابتة في بنية المجتمع المسلم القوي الذي يسعد بسلطان العقيدة، ويتسم بالتراحم والود، بعيداً عن عناصر الهدم والفساد: تبدأ من إحكام الحلقة الأولى، لا على أساس مادي من تبادل المنافع وانقضى الأمر، ولكن على أساس من الصلة النابعة من القلب المشرق بالإيمان، ابتغاء مرضاة الله تعالى، والتي تثمر ـ فيما تثمر من الخير ـ تمتين الأواصر على ساحة ذوي القربى أولاً، وتماسك المجتمع ثانياً، ناهيك عما يغمر الجماعة والمجتمع من السعادة بتحقيق إنسانية الإنسان بعيداً عن الحقد والكراهية وتصيُّد العثرات.

إنه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ يعلمهم ويزكيهم دالاً إياهم بقوله وسلوكه على ما يريد، مستشهداً بالكلمات الهاديات التي خوطب بها الكفار، والتي تحمل ما تحمل من الإعظام لشأن الرحم بالتنبيه على فقه قوله تعالى:﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ إلى قوله :﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾.

واتضح بهذا البيان الحكيم منه عليه الصلاة والسلام أنه يريد من المسلمين أن يعلموا حق العلم أن أولئك الذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ملعونون، آذانهم صمٌّ عن الحق، وأبصارهم عميٌّ عن الهدى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ .

ألا ليت للذين يشهدون شقاء المجتمعات البعيدة عن هدى اللّه وشقوتها قلوباً تعي، وعقولاً لها إلى النَّصَفة نسب: كيما يثوبوا إلى الرشد بعد عناد، شاهدين على أن الإسلام هو المثابة التي يجب أن تستأنف البشرية طريقها إلى هديه، كيما تحقق للإنسان سعادة الدنيا بأقوم وجوهها، والنجاة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ثم أليس عند الكثيرين من أدعياء الثقافة والتنوُّر من الأمثلة الواقعية في مجتمعاتنا هنا وهناك، فضلاً عن مجتمعات الآخرين، ما يؤكد هذه الحقيقة، ويزيد يقين الموقنين بأن القرآن ـ وهو منبع الهداية الأول ـ كلام اللّه وأن محمداً ﷺ المؤتمن على إبلاغه وبيانه عبداللّه ورسوله؟ الأمر الذي يدعو إلى مزيد من الثقة، والمسارعة الواعية إلى اعتناق الحق، وتجاوز العقبات التي يضعها المفسدون، في الأرض أعداء الحق والإنسان، وهي العقبات التي تحول دون الوصول إليه، وترجمة المنهج الرباني إلى واقع في حياة الفرد والمجتمع والأمة، بل على صعيد البشرية جمعاء؟

* * *

من صور البناء... في البيان النبوي

«٢»

إن ما دل عليه المعلم القرآني في سورتي النساء ومحمد ﷺ كان منه الهدي النبوي بحسبان، بياناً للقرآن وإعداداً لإنسان الدعوة الذي قُلِّد أمانة البناء بكل مضامينه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

ولقد رأينا لمحة من لمحات بيانه صلوات الله وسلامه عليه في ظل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

ولعل من الخير أن نذكر أنه ﷺ لم يكن يقيم البناء الاجتماعي ويؤكد وجوب صلة الأرحام التي تنعكس على المجتمع في تماسكه وتضامنه وسعيه الحثيث ـ كالجسد الواحد ـ إلى تحقيق الرسالة بصورتها العملية في الاعتقاد والتشريع والسلوك..

لعل من الخير أن نذكر أنه لم يكن يفعل ذلك، وهو بمنأىً عما كان عليه أهل الجاهلية، ومدى ارتباط ما كان من التفسخ الناتج عن ذلك الاضطراب في علاقات ذوي الأرحام بعضهم ببعض وما كان من الضغائن وإضاعة الحقوق وهدر القيم.

ودع عنك نخوة الجاهلية: فتلك قضية ليس لها نظام محكم أو قاعدة منضبطة؛ فهي يوماً تشرِّق، ويوماً تغرِّب، حسب ميل الهوى والطارىء من الأحداث.

وهذا الذي نشير إليه أسهم في تكامل عملية البناء التي كان يزاولها رسول الله ﷺ؛ فهو على ذكر مما كان عليه واقع المجتمع الجاهلي بمقدماته ونتائجه، وعلى تنبه لكل شاردة وواردة يمكن أن تعرض له وهو يعمل على تنمية إمكانات أصحابه، ليكونوا الأكفياء الأمناء عند وضع ما ائتمنوا عليه من أحكام الإسلام موضع التنفيذ في الفرد والأسرة والمجتمع.

ونِعمًّا تصنع العقيدة حين تكون هي الموجهة للسلوك.. نِعِمّا تصنع بما ترتفع بالمؤمن فوق المعوقات، وتجعله أقدر على التحكُّم بالرغبات، والعمل على اقتلاع رواسب جاهلية الأمس، والتطلع الصادق إلى ما عند الله ، مثل التلفت إلى زخرف الدُّنيا من هنا وهناك.

وإذا كان أمر العقيدة كذلك: فلا بدع أن يذكِّر رسول الله ﷺ بمجموعة من الفضائل والمكرمات ومنها صلة الرحم التي تمسُّ العلاقات على صعيد اللبنات الأولى في المجتمع مساً مباشراً، ويحكم الرباط بينها وبين الإيمان بالله واليوم الآخر؛ ذلكم ما أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».**

أرأيتم هذا الصنيع التربوي بالكشف عن هذا الارتباط بين الشرط وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين جوابه من تحقق هذه المكرمات؟! فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، فليصل رحمه، فليقل خيراً أو ليصمت.

صلى الله وسلم على معلم الناس الخير رسول الله؛ كثيراً ما نغفل عن الهدي النبوي وهو بيان الكتاب الكريم، وتغيب عنا في حميا العجيج والضجيج بعض القضايا المهمة التي ينبغي أن تكون لها الأولوية في تصرفاتنا؛ فأنت ترى هنا أن صلة الرحم اقترنت بإكرام الضيف، والصمت إلا عن خير؛ وكل أولئك مرتبط بالإيمان بالله واليوم الآخر، وموقعهما في أركان الإيمان لا يخفى!! أوليست هذه كلها من العناصر التي تسهم بقوة في تماسك المجتمع الحضاري القدوة؟ صلة الرحم تقوي اللبنات الأولى، وإكرام الضيف يمتِّن أواصر الود والتصافي، ويعطي الأخوة مزيداً من القوة والنماء.

ثم أليس الحفاظ على الود، ودرء الفتنة والشقاق، والبعد عن كلمة الحسد والغيبة والنميمة من كل ما يسبب الشحناء والبغضاء ويفرق الشمل أن يقول المرء خيراً أو ليصمت؟!

لقد سلك رسول ﷺ ـ وهو يعلم ويزكي بنور النبوة ـ سبيل البناء الاجتماعي المكين عندما ربط الفضائل بالإيمان، وهو درس أعظِم به من درس على صعيد التخطيط التربوي والتنفيذ؛ لذا كان من المهم اليوم أن تستأنف الأمة طريقها بعد هذا الضياع ، وتوليَ وجهها شطر الهداية الربانية على الوجه الذي ينبغي من جديد مع عدم الغفلة عن الواقع ومعطياته، ووجوب التساوق في الحركة مع سنن الله الكونية، كيلا نقع في شيء من الغفلة عن استنفاد الأخذ بالأسباب على الوجه الذي ينبغي.

* * *

تكامل صفات المؤمنين
والبناء النبوي... في البناء الحضاري
«٣»

ما زلنا في حيز المتابعة لعطاء المعلم القرآني من خلال الآيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من سورة (محمد) ﷺ، حيث خاطبت الآية الأولى بحزم ووعيد أولئك الذين طغى عليهم التقليد الأعمى، ومرضت منهم القلوب بقول الله جل ثناؤه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

وكشفت الآية الثانية عن أن الذين يقعون في هاتين الموبقتين بعد توليهم عن الجهاد، وعدم صدقهم مع الله هم الذين لعنهم الله بسبب زيغهم ومظاهرتهم للباطل على الحق، وأعمى أبصارهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[الصف:٥] .

ولقد سُعدنا بالذي أوقفتنا عليه نصوص السنة المطهَّرة من أن النبي ﷺ ـ وهو المبين عن الله ما أراد ـ وضع أولئك الذين كانت يده الصناع تصوغهم بتعليمهم الكتاب والحكمة وتزكيتهم بنور التربية النبوية، وراحوا يرتادون للإنسانية مسالك البناء الحضاري المبصر.. وضعهم أمام الحقيقة التي تقررها هاتان الآيتان الكريمتان، وآصرةِ النسب بينهما وبين ما ورد في فاتحة سورة النساء.

ولعلنا لا نبعد النجعة إذا نحن تحولنا اليوم شطر سورة الرعد ـ وهي سورة مدنية أيضاً ـ كيما نشهد مرة أخرى تكامل البناء في المنهج الرباني و الله أعلم بما يصلح عباده ـ وكيف أن معالم القرآن تجعل صلة ما أمر الله به أن يوصل، ضمن مجموعة من الصفات التي يزداد بها سلوك أهل البصيرة المؤمنين الذين هم أولو الألباب.

وما من ريب في أن هؤلاء الذين تتوافر فيهم تلك المجموعة من الصفات السنيَّة، تلك التي تؤذن بتكامل بنية الإنسان من حيث الوجود الحقيقي في ضوء الرسالة التي يتحرك تحت رايتها، هم المرشحون لبناء المجتمع الذي لا يئنُّ تحت وطأة الضعف والتمزق، ولا يعاني من تفكك الأسرة، وتقطيع أواصر القربى، كما لا تحكمه فوضى الأهواء، أو مشاعر رهبة الظالمين، والبعد عن موئل العقيدة، وأخلاق أهل الإيمان.

وإليكم الآيات التي جاءت على ذكر الخلائق المومى إليها بدءاً من الآية السادسة عشرة في سورة الرعد.

يقول ربنا جل جلاله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي أعقاب هذه الآيات التي أشرقت بما نرى من سنيِّ الصفات نقرأ في صفات من هم على النقيض من أولئك المؤمنين الصادقين أولي الألباب لا عبيد الأهواء والنزوات ـ وبضدِّها تتميز الأشياء ـ نقرأ قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد ففي ضوء ما تزخر بها هذه الآيات الكريمات بشقَّيها من مقومات البناء المحكم للإنسان المكرَّم المؤهل للخلافة في الأرض، وللمجتمع في إطار الأمة، وبخاصة على الصعيد الاجتماعي من نافذة الضياء الإسلامية، ليؤخذ بها فتصحب الثقافة والفكر والسلوك، وما تقدم ممن أدركتهم الخيبة، فكانوا عناصر تخلخل وزعزعة وخبال لأنفسهم وللمجتمع كي تُحذر وتُجتنب..

في ضوء ذلك من حق كل واع متبصِّر ينشد الحقيقة أن يقول: إن دعوى الانتماء إلى أمة يفترض أن تحكم ثقافتها التي تجمع بين المعرفة والسلوك ومناهجها في بناء الحياة وعمارة الأرض وطريقتها في التفكير، ومسالكها في التشريع القائم على مقاصد الخير وتحقيق سعادة الإنسان في العاجلة والآجلة:.. إن هذه الدعوى تحمل في طياتها مسؤوليات كباراً أمام الله ثم التاريخ، ينبغي ـ بل يجب ـ أن تواجه بشجاعة إيمانية ووعي واقعي، يرتفعان بالأجيال بناءً وإعداداً يحملان تكافؤ الفرص في تحقيق الوجود الذاتي للأمة، ومواجهة التحديات التي تتكاثر وتتنوَّع أسلحة أصحابها يوماً بعد يوم.

وإذا كان الخير يجلب الخير: فما أسرع ما تذكرنا الكلمات الهاديات التي تحتضن تلكم الصفات الخيِّرة التي تؤذن بنورانية أولي النهى وتكرمتهم بأهلية التحلِّي بها.. ما أسرع ما تذكرنا هذه الكلمات بآيات مباركات في سورة «القصص» تشتمل على عدد من الصفات ذات النسب إلى الصفات المذكورة في سورة الرعد، وهي صفات

أسندت إلى أولئك الصفوة الأخيار من أهل الكتاب الذين جمعوا إلى الإيمان بكتابهم الحق ـ قبل التحريف ـ الإيمان بالقرآن الكريم. ذلكم قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية الثانية والخمسين: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٥٢-٥٦] .

* * *

ظاهرة الصحة
والأسوة الحسنة... والبناء
«١»

أنى تلفتَّ في ميادين الترجمة العملية لأحكام الإسلام وأخلاقه على أرض الواقع والحركة الدائبة للإنسان والمجتمع من حوله، ومهما تشعبت بك السبل والمسالك على سلَّم الهداية إلى الخير: فأنت واجد بلا ريب أن البشير النذير عليه الصلاة والسلام هو القدوة العملية والأسوة الحسنة في هذا.

وقد كان ذلك منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أدعى لأن تأخذ دعوته الخيِّرة أبعادها الحقيقية الناطقة بصدقها في دنيا الواقع، وأن تجد الإنسان الذي يترجم ما آمن به، وانشرح صدره له، إلى عمل وسلوك.

ولقد رأينا فيما سبق بعضاً من توجيهاته عليه الصلاة والسلام في شأن صلة الأرحام وبر الوالدين، بياناً لما ورد في ذلك من آيات بينات في عدد من المواطن في كتاب الله عز وجل، من مثل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [الرعد:٢١] وقوله جل شأنه :﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[النساء: ٣٦] وقوله سبحانه:﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان: ١٥].

فإذا توجهنا صوب التطبيق العملي وجدناه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يأخذ نفسه بهذا الهدي القرآني، وبما بينه للناس فيه على أكمل وجه وأفضله..

يأخذ نفسه بذلك ـ وهو يمسك بكلتا يديه مقومات البناء الشامل للفرد والمجتمع والدولة، وعناصر النماء المثمر، ليضعها موضعها المناسب على طريق المسلمين؛ كيما يكونوا قادرين على بناء أنفسهم، وبناء مجتمعهم الأمثل، وهم في الطريق إلى بناء

الدولة جنوداً للقائد المؤيد بالوحي، بل كيما يكونوا أقدر على أن يقدموا للإنسانية معالم الحضارة الإنسانية بحق، ويبلغوا بها المرحلة التي لا يغني غناءها منهج لا يرتبط بعقيدة التوحيد، ولا يعطي عطاءها تجارب مبتورة عن مقتضيات فطرة الإنسان تتجاهل طبيعة تكوينه كما خلقه الله وأودع فيه من الأهلية ما أودع، وطبيعة العلاقة التي يجب أن تحكم صلته بالكون والحياة!!

روى أبو داود في «سننه» عن عمر بن السائب: «أن رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه من الرضاعة، فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه الآخر، فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام له النبي ﷺ فأجلسه بين يديه».

كما أخرج عن أبي الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يقسم لحماً بالجِعِرّانة. قال أبو الطفيل: وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور، إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبي ﷺ، فبسط لها رداءه، فجلست عليه. فقلت: من هي؟ فقالوا: هي أمه التي أرضعته».

ذلكم هو طريق البناء الاجتماعي الأمثل، في علاقة الناس بعضهم ببعض، بدءاً من الحلقة الأولى، حتى لو كانت القرابة من الرضاع.

وصلى الله وسلم وبارك على الأسوة الحسنة نبينا محمد رسول الله، ما كان أعظمه في هذا الصنيع مع والديه وأخيه من الرضاعة!.

إنها نافذة فسيحة تطل على جو فسيح رحب يرسم للأمة طريق الوفاء وحسن التعامل أداءً لحقوق أصحاب الحقوق التي لا يتجاهلها إلا غبيٌّ سفه نفسه ولم يعرف للوفاء ـ على الأقل ـ طعماً.

وهذه النافذة المباركة المشرفة مؤيدة بوجوب الوقوف عند أمر الله ورسوله، الأمر الذي يكون طريقاً لمرضاة الله التي تسعد في الدارين، ويُحكِم بناء الأسرة والمجتمع على أفضل الأسس وأقومها، وذلك من بعض فضائل هذا الدين.

والحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ظاهرة الصحة
والأسوة الحسنة في البناء
«٢»

أسعدنا ـ من قريب ـ اصطحاب واحدة من الصور العملية التطبيقية في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، لما جاء في القرآن الكريم في شأن صلة الأرحام وبر الوالدين، ولما دعا إليه الرسول ﷺ نفسه على هذه الساحة التي تنتج آثارها في توفير القوة للبنية الاجتماعية المقصودة في ظل شرعة الإسلام؛ ناهيك عما يكون في ذلك من طاعة الله وتقواه!

تلك الصورة هي ما رأينا من إكرامه ﷺ، وما كان من حسن صلته لأولئك الذين كان إحسانهم إليه في حقبة الرضاعة سبباً في علاقته بهم؛ فهو يصل ـ بمزيد من العناية التي يؤذن بها العرف يومذاك ـ أمه من الرضاعة، وأباه من الرضاعة، وأخاه من الرضاعة.

هكذا اتسعت الدائرة في وضع الهداية القرآنية في شأن الوالدين ولو كانا من الرضاع موضع العمل والالتزام عند التعامل، حتى شملت في سلوك الرسول ﷺ ـ وهو المسؤول الأول المؤتمن على البناء الخيِّر في المجتمع ـ برَّ الوالدين من الرضاع، وصلة من يهمهما ودُّه وهو أخوه من الرضاع.

وإنك واجد أن كلَّ ما دلت عليه الآيات في شأن الوالدين على صعيد التراحم والصلة والودِّ الذي لا يقتصر عليهما، بل يتعدى إلى من بودِّه رضاهما وسرورهما قد وضعه الرسول ﷺ موضع العناية الفائقة، وكان بذلك نعم القدوة الحسنة للأمة في وضع ما جاء في الكتاب الكريم من هديه عليه الصلاة والسلام: على ما هو جدير به على ساحة السلوك.

والحق أن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان يكشف في سلوكه العملي الأهمية البالغة لتماسك المجتمع المسلم على أساس من العقيدة الربانية وحسن الخلق في تعامل الناس بعضهم مع بعض، خصوصاً وأن هذا المجتمع الوليد في المدينة كان هو أيضاً يؤدي دور القدوة للمجتمعات الأخرى التي تصدق مسيرتها في الانتماء إلى أحكام الإسلام وآداب الإسلام.

من أجل ذلك طلعت علينا سيرته الكريمة بتوسيع دائرة البر غير المتكلَّف أكثر وأكثر، حتى شملت صلة من كانوا وُدّ زوجه الصادقة العاقلة الحصيفة السيدة خديجة رضي الله عنها.

إنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان يتجه بذلك صوب القضاء على كل ما يكون سبباً أو عاملاً من عوامل التمزق والضعف وكل ما يتنافى مع الفطر السليمة والأخلاق الكريمة. الأمر الذي يتيح لمجتمع العقيدة أن يتوّج بما كان يرمي إليه ﷺ من قوة لهذا المجتمع ونماء. بله أهلية الوفاء بحاجات الفرد والجماعة في الميادين كافة.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «ما غِرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرت على خديجة رضي الله عنها، وما رأيتها قط، ولكن كان يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة فقطعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة؛ فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: إنها كانت وكانت... ولي منها ولد».

وفي رواية: «وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن».

أفلا نذكر ما روى الشيخان وأحمد وغيرهم ـ والأمر أمر خلقه عليه الصلاة والسلام في حسن التعامل مع ودّ خديجة ـ أنها ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ آمنت به وقد كفر به الناس، وصدقته من أول الطريق وقد كذبه الناس، وواسته بمالها، وعاونته المعاونة التي يشرق بها التاريخ برأيها الصائب حين قالت له ـ وقد جاء

يرجف فؤاده من فجأة ملاقاة جبريل عليه السلام ـ: « و الله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»

فإنسان هذه بعض شمائله في نظرها حاشا الله أن يخزيه، وما يخاف عليه لمة من الشيطان، بل يكون الموفّق التوفيق كلُّه كما تقتضي ذلك حكمة الله تبارك وتعالى وسننه في خلقه.

وكم هي عظيمة دلالة هذا التعليل لعدم الخزي من خديجة رضي الله عنها على عقلها الكبير، وحصافتها المتميزة، وصدقها مع النبي عليه الصلاة والسلام.

والأثر العظيم لهذا الموقف منها رضي الله عنها في تلك المرحلة الصعبة من مراحل الدعوة الجديدة لا يخفى.

هكذا ـ ومن خلال الوقائع ـ كان يرى عليه الصلاة والسلام أن خديجة جديرة بأن يحرص على صلتها وودُها بعد موتها ـ رضي الله عنها ـ بصلة خلائلها ومن كانت تود، وإنه لصنيع نِعمًا هو بياناً للقرآن الكريم بالعمل والسلوك.

وعائشة رضي الله عنها تكشف لنا ـ فيما روت ـ عن الأمر بكل وضوح، وتتحف الأمة ـ وهي الزوجة العالمة التي رضيت لنفسها ما رضي رسول الله ـ بواحدة من خصال النبي ﷺ وشمائله في البر والصلة والإحسان وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي أمر الله تعالى بها وأوضح أبعادها بنفسه عليه الصلاة والسلام.

ولقد كانت رضي الله عنها أمينة كل الأمانة في هذا الذي تقول وتروي عنها قبل أن تعرف عنها الكثير!

إنها الدروس التي تشكِّل الإفادة منها، وتبيِّن مراميها وأبعادها على ساحة العمل والممارسة ـ على اختلاف الأزمنة والأمكنة ـ ظاهرة صحة في المجتمع المسلم، نرجو أن تسهم الإسهام كلُّه في الانتصار على ما قد تبتلى به المجتمعات الإسلامية من أمراض وافدة من الغرابة بمكان: جهلها أو تجاهلها.

ظاهرة الصحة
والأسوة الحسنة في البناء
«٣»

كلما تأمل المؤمن ـ على هدي إيمانه ـ في سيرة النبي ﷺ فأحسن التأمل، ازداد يقيناً بأن الصورة المثلى للعمل بما جاءت به معالم الكتاب الكريم، ونطق بها منهج هدايته الربانية القويم، إنما تكون بأخذ النفوس بطاعة الرسول الكريم وحسن التأسي به، وأن الحركة البناءة التي تهدف إليها الأمة، كيما تتحوَّل بالواقع إلى ما يجب أن يكون، لابدَّ أن تضع في حسابها ـ وهي تتجه بعزم وحزم وجهة التحول هذه ـ أن تكون الحركة في خضم الحياة مستنيرة بما يعنيه قول الله تعالى:﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وقوله خطاباً للأمة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١] مهما تنوعت الميادين، وتعددت عناوين الحركة ووسائل الإنماء المتوائمة مع سنن الله الماضية في دنيا الثقافة والسياسة، والاجتماع والاقتصاد وما يمت إلى ذلك أو بعضه بسبب.

ولقد شهدنا ونحن نصطحب هذه الحقيقة من قريب نموذجين في سنته عليه الصلاة والسلام على صعيد العمل بهداية القرآن في الحقل الاجتماعي وعلاقة الناس بعضهم ببعض، وبخاصة ما كان على صعيد اللبنات الأولى في بنية المجتمع، حيث اتسعت دائرة البر والصلة والإحسان فيما سنَّ للمسلمين من ذلك، إلى إكرام الوالدين من الرضاع والإحسان إليهما، وإكرام أخيه من الرضاع والإحسان إليه وتقديره، وحيث اتسعت دائرة الصلة ـ كما تُرى في تصرفاته السامية ـ والوفاء لزوجه خديجة رضي الله عنها بعد موتها إلى حيث بات يتعهد خلائلها ومن كانت تودهم في حياتها. وقد ثبت كل ذلك في السنة من سيرته المطهرة.

وأنت واجد أن الصحابة رضوان الله عليهم ـ وقد رباهم رسول الله تعليماً وتزكية بالكلمة والقدوة، والممارسة العملية على العلم والعمل في إطار عملية البناء الكبرى ـ قد أدركوا من حسن التأسّي برسول الله ﷺ وطاعته ما سما بهم إلى أن جعلوا ذلك طريقهم إلى العمل بكتاب الله والوقوف عند حدوده.

فالخطاب بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١] خطاب للمسلمين ذكورهم وإناثهم في كل زمان، وهم في مقدمتهم حيث شهدوا رضوان الله عليهم التنزيل. وجعل طاعة الرسول من طاعة الله أمر لا تخفى دلالته على ذي بصيرة.

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أنهم بطاعتهم هذه وحسن تأسيهم ما فتؤوا يغذّون السير نحو الهدف الكبير إعلاءً لكلمة الله في الأرض. ويمدون المجتمع بالقوة والتماسك بشكل عفوي من طريق استمساكهم بهدي النبي عليه الصلاة والسلام الذي هو بيان القرآن الكريم.

وإذا كان الخير يجلب الخير فلنتجه إلى وقائع أخرى تزيدنا يقيناً بهذه الحقيقة؛ من ذلك ما كان من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ كما رأينا من قبل ـ من صلته أهل ودّ أبيه مسارعة إلى العمل بهدي النبي ﷺ في هذا الأمر الجلل؛ فقد روى مسلم عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا ملّ ركوب الراحلة، وعمامةٌ يشدُّ بها رأسه؛ فبينا هو يوماً على ذلك الحمار. إذ مرَّ به أعرابي، فقال: ألست ابنَ فلا بن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا، والعمامةَ قال: اشدد بها رأسك؛ فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك، أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تروّح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من ابر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي» ، وإن أباه كان صديقاً لعمر.

ولا شك في أن أهل ود الأم داخلون في هذا التوجيه، غير أن الكلام جرى مجرى التغليب.

وعلى ساحة أكثر اتساعاً لما يشعرك بالصياغة الفاعلة المتكاملة التي صاغ عليها رسول الله ﷺ من انتدبهم لبناء حضارة الإسلام، ونمّى فيهم روح الانضباط بضوابط الحق، الأمر الذي سلك بالمجتمع سبيل العزة الإيمانية والسلوك القويم عند الفرد والجماعة، وارتفع به إلى مستوى التآزر والتماسك في الأحوال كافة.. على هذه الساحة يطالعنا ما روى ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال: خرجت مع جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه في سفر، فكان يخدمني؛ فقلت: لا تفعل، فقال: إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئاً آليت أن لا أصحب أحداً منهم إلا خدمته. رواه البخاري ومسلم.

وبعد: فلا تثريب على قائل أن يقول: إن هذا السلوك من الصحابة كان في الواقع آية استقامة الرحلة التي حمل المسلم أعباءها في دنيا البناء المتميز والنماء الذي لا تعوزه ضوابط الحق والوفاء وإنسانية الإنسان.

* * *

ظاهرة الصحة

والأسوة الحسنة في البناء... وأم أيمن

«٤»

الجيل الفريد في التاريخ، أولئك الذين رافقوا ـ قبل الإسلام ـ سيرة المجتمع الجاهلي، وما عني به ـ مع ما كان يسوده من بعض مكارم الأخلاق ـ من مصاعبَ هي انعكاسٌ للصراع القبلي، والتقليد الأعمى للآباء وإن كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، والركون إلى الكهانة والخرافة في ظل الوثنية الخرقاء..

الذين رافقوا هذه المسيرة، ثم أكرمهم الله بالإسلام، وكانوا مع رسول الله ﷺ في السرَّاء والضراء، والحرب والسلم، والمنشط والمكره، حيث استنارت قلوبهم وعقولهم بالمنهج الرباني في شموله بناء الفرد والأسرة والجماعة، كانت بصائرهم مفتحة على التبدل الجذري الذي أشرقت به قواعد البناء الجديد التي رفعوها بقيادة المصطفى عليه الصلاة والسلام على أنقاض ذلك المجتمع الذي كان يئنُّ تحت وطأة الجاهلية وأعرافها المتراكمة، يوم أفسحوا للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أن تكون صاحبة السلطان في حياتهم وشؤونهم كافة، ما كان منها على صعيد الأفراد، أو الجماعة، أو المجتمع على هدي تلك القيادة الحكيمة التي ترتاد للأمة ـ بل للإنسانية ـ عملية التغيير إلى ما هو الأفضل تبليغاً وبياناً وتطبيقاً عملياً على نور من الله ذي الجلال والإكرام.

وكان طبيعياً ـ والأمر كذلك ـ أن تكون تصرفات صاحب الرسالة ﷺ ـ وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين فيما يقول أو يفعل أو يقرُّ وطاعته من طاعة الله ـ نبراساً هادياً للجماعة، يأخذ حقه الكامل من العناية الصادقة والاهتمام البالغ، على حد القاعدة الذهبية: «عرفتَ فالزم».

وهذا ما شهده تاريخ التحول عن الجاهلية التي كانت تسود المجتمعات يومذاك إلى الأخذ بمقومات الوجود الإسلامي في المجتمع الجديد في صدر الإسلام، حيث كان الصحابة الكرام عليهم الرحمة والرضوان لا يغادرون ساحة الطاعة لله ولرسوله، ويتخذون من التأسي بالرسول ﷺ هادياً إلى إحكام البناء للمجتمع المسلم بقيادته عليه الصلاة والسلام، فكانت معاناتهم ـ وهم يقومون بدور النقلة ـ ترجمة عملية لما جاء في هدي الكتاب الكريم وبينه الرسول عليه الصلاة والسلام قولاً وفعلاً خير بيان.

ولقد يعنينا هنا أن نشير إلى ما تزخر به كتب السنة المطهرة من متابعة الصحابة لتصرفاته على صعيد الأسرة وصلة الأقارب والأرحام، بل وفي الدائرة الأوسع في المجتمع الوليد.

والعهد قريب بما زودتنا به السنة من نماذج ناطقة بذلك على صعيد البناء الاجتماعي وما تتطلبه خلاياه الأولى من إحكام يقود إليه الودُّ النابع من القلب طاعة لله ورسوله، وكانت تلك النماذج وجوداً حياً متحركاً لما قررته آيات الكتاب الكريم في شأن صلة الأرحام وبر الوالدين، واتسع البيان النبوي في سلوكه عليه الصلاة والسلام، لتجاوز الأقرباء النسبيين في البر والصلة، إلى أقرباء الرضاع، ولتجاوز الوفاء للرحم في حياته إلى صلة وده ومن لا توصل الرحم إلا به؛ كالذي رأينا من الوفاء لخديجة رضي الله عنها بعد وفاتها وفاءً تجاوز صلتها في حياتها إلى صلة خلائلها والإحسان إلى ودها بعد أن أفضت إلى ربها.

والحق أن هذه النصوص من السنة العملية في حياة أسوة المسلمين الحسنة عليه الصلاة والسلام، قد بينت ـ فيما بينت ـ ما لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾[الرعد: ٢١] من أبعاد تتجاوز الحدود التي قد تبدو لأول وهلة، وتفتح آفاقاً لحسن التعامل المفضي إلى إحكام البنية الاجتماعية على صورة تنبعث من الذات ليس للكلفة أو التصنع إليها سبيل.

وها نحن أولاء نسعد باصطحاب صورة عملية أخرى تجري له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مع حاضنته أم أيمن رضي الله عنها، وهي صورة تكشف عن بعض مما يشرق به قوله تعالى خطاباً لأكرم الخلق عليه الصلاة والسلام:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[القلم:٤] في فواتح سورة مكية هي سورة القلم، كما تكشف عن بعض من عوامل الرسوخ التي اتسم بها بناء المجتمع في ضوء هديه وسلوكه في تعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس صلوات الله وسلامه عليه، وما يمارسه من عملية التحويل اليومية، وما يجتهد في وضع كل لبنة مكانها من البنية المنشودة في تناسق وتكامل واضحين.

فقد روى مسلم عن أنس ﷺ قال: انطلق النبي ﷺ إلى أم أيمن، فانطلقت معه، فناولته إناءً فيه شراب، قال: «فلا أدري أصادفته صائماً، أو لم يُرده، فجعلت تصخب عليه وتَذمَّر عليه».

لم يعرف أنس ﷺ سبب ردِّ رسول الله ﷺ الشراب الذي قدمته له أم أيمن! أكان لأنه صائم، أم أنه لم يرده لسبب آخر. ولكن الذي جزم به أن أم أيمن قد جعلت تصخب عليه- تصيح وترفع صوتها - استنكاراً لإمساكه عن ذلك الشراب الذي قدمته له مع علمه بصدقها وحبها أن يشربه وينتفع به، وأنها جعلت تذمَّر أيضاً أي تتكلم بغضب.

ومن الواضح البين: أن الواقعة تدل أبين دلالة على أن الرسول ﷺ ـ وهو سيد العالمين ـ لم ينكر على الحاضنة الأمينة التقية النقية إنكارها عليه، ولا غضبها وصخبها؛ فقد كانت تُدِلُّ عليه ﷺ وبارك عليه، لكونها حضنته وربته حقبة غير قليلة من الزمن.

ولئن كان السمو الخلقي المشرق بالوفاء واضحاً في هذا الذي يرويه أنس ﷺ فإن هنالك دلالة أخرى للواقعة نبصرها في ضوء المعالم الكبرى لمرحلة البناء الكبرى التي كان رسول الله ﷺ يرفع قواعدها وينمي في نفوس المسلمين أن يكونوا جند هذه العملية الفريدة في التاريخ، في خاصة أنفسهم، وفي صلتهم بالآخرين، سالكين سبيل الإخلاص وطلب المثوبة عندالله، و الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ظاهرة الصحة...

والأسوة الحسنة في البناء... وأم أيمن

«٥»

في ظل العناية البالغة التي يوليها الإسلام ـ وهو الدين الذي ارتضاه الله لهذه الأمة ـ للبناء الاجتماعي الذي لا نفتقد معه أحكام الدين وأخلاقه، في أسسه وقواعده، وفي ضمانة سلامته واستمراره متماسكاً معافىً يستعصي على الطارىء الدخيل. أعود إلى التذكير مرة أخرى بالقدر الفسيح الذي أعطاه النبي ﷺ للجانب المتعلق بكيان الأسرة، وتماسك الأرحام والأقارب تماسكاً تزينه صلة الأرحام والود والتعاون والإحسان، وهو العطاء الذي لم يقتصر على الكلمة والوصية والتوجيه، ولكنه تجاوز إلى السنة العملية، فكان عليه الصلاة والسلام أكرم مثل وأعظمه لصلة ما أراد الله أن يوصل، والعناية بمدِّ جسور الود والإحسان، حتى إلى من كان يودهم ذو الرحم في حياته قبل الموت!

وكان آخر نموذج عرضنا له ورأينا فيه مزيداً من البيان لآيات الكتاب الكريم التي أشرقت بالدعوة الحارَّة إلى صلة الأرحام، وكذلك التي نددت بتقطيع الأرحام وجفوتهم، والتي أولت بر الوالدين والإحسان إليهما مزيداً من العناية والحض.. كان آخر نموذج لهذا البيان: ما وقفنا عليه حديث أنس عن واقعة تمثَّل فيها برُّه الواضح عليه الصلاة والسلام بحاضنته أم أيمن رضي الله عنها، وإحسانه المتألق إليها، وفاءً بالحق، وحرصاً على وصل ما أراد الله أن يوصل؛ فهي التي كانت ذات دالَّة عليه؛ لأنها حضنته وربَّته، وفي الوقت نفسه كانت على درجة رفيعة من اليقين والمحبة لله ولرسوله، وفقه لمعنى كونه ﷺ رسولاً يتنزَّل عليه الوحي من السماء.

وإني إذ أعود إلى التذكير بذلك أُراني مسوقاً إلى إيراد واقعة أخرى تتعلّق بهذه المرأة العظيمة رضي الله عنها التي أولاها رسول الله ﷺ ما أولاها من عظيم التقدير والاهتمام.

ويقتضيني عقد الصلة بين الواقعتين: أن أعيد قراءة النص الذي كانت الواقعة التي جرى الإلماح إليها فيما سبق قد وردت فيه.

وذلكم ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لا أدري، أصادفته صائماً أو لم يرده؛ فجعلت تصخب عليه، وتذمّر عليه».

هذه هي الواقعة كما رواها هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه، والتي توحي بهذا الموقف الكريم الذي يذكّر بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وإذا كان هذا اللون من البر والصلة وسعة الصدر قد حدث من سيد العالمين عليه الصلاة والسلام فأولى بالمسلم أن يكون على ذكر من قول الله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١] فيستمسك بعرى الإحسان وكريم الصلة وحُسْن التعامل فيما هو أدنى من هذه المرتبة قرابةً ورحماً بكثير؛ وذلك ما يطبع المجتمع المسلم ـ مع التنظيم الدقيق ـ بطابع الود، والتصافي، ويجعله أقدر على إنجاز ما توجب المصلحة إنجازه من كل ما يعود على الأفراد بالخير، فقهاً في دين الله، وثقافة واقتصاداً واجتماعاً وما إلى ذلك، مع العطاء المثمر كلما دعا داعي العطاء، وذلك بتكامل يُحِلُّ العمل المثمر محله من البناء، ولا يهمل الخلق القويم، والسلوك المستقيم.

أما عن الجديد الموعود به فهو واقعة نقلها إلى الأمة أيضاً أنس رضي الله عنه، وهي تعطي ـ فيما تعطي ـ شذرة من شذرات الضياء فيما بلغته أم أيمن بإيمانها الصادق، ووعيها المستنير، كما تشعر بحرص الصحابة رضي الله عنهم على حسن التأسي بالرسول القدوة عليه الصلاة والسلام، في شأن وصل من يجب أن يوصل، وبرِّ من كان يودُّهم وتقديرهم والإحسان إليهم.

فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أنس ﷺ قال: «قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ : انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما انتهيا إليها بكت، فقال: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عندالله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسوله عليه الصلاة والسلام، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء؛ فهيَّجتهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها».

هذه هي أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ التي أكرم الله بها هذه الأمة بأن كانت هي الحاضنة الأمينة الحصيفة له عليه الصلاة والسلام، والتي جعلت تصخب وتَذمَّر حين لم يشرب رسول الله ﷺالشراب الذي قدمته إليه.

أجل هذه هي أم أيمن رضي الله عنها وأرضاها التي بلغ من إيمانها ووعيها لحقيقة هذا الدين وعظمة اتصال الأرض بوحي السماء أن تبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، وقد أذكرها ذلك الأمر البالغ الأهمية زيارةُ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قياماً بما لها من الحق تأسياً بصنيع الرسول عليه الصلاة والسلام الذي كان دائم الصلة لها، وعدم الانقطاع عن زيارتها.

ألا وإن مجتمعاً تبلغ فيه الحاضنة المربية هذا المستوى من الوعي جدير أن يكون المجتمع الأمثل القدوة الذي يحسن تكوين الرجل والمرأة، على خير ما يكون من الإيمان والوعي وحسن التبصُّر، والقيام بكل ما تمليه ضوابط الشرعة المباركة على صعيد البر والصلة، ورفد هذا المجتمع بروافد الخير والتعاون على البر والتقوى، وتوثيق أواصر الأخوة والرحمية على نور من الهداية الربانية في الكتاب الكريم، وبيانه الناذ من نبينا المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

* * *

الأسوة الحسنة... والبناء وأم أيمن

«٦»

الحق أن الواقعة التي جرت الإشارة إليها فيما سلف من القول، وهي ما روى أنس بن مالك ﷺ من زيارة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأم أيمن عليها الرحمة والرضوان، وبكائها لأن الوحي قد انقطع من السماء، لا لأنها لا تعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ثم كيف هيّجهما هذا البكاء، فجعلا يبكيان معها...

الحق أن هذه الواقعة المضمّخة بعبير الذكرى، وفقه معنى الرسالة، وحرص الشيخين العظيمين على الاقتداء بالرسول ﷺ فيما كان يقوم به من صلة من يجب أن يوصل غنية بالدروس والعظات، وهي عنوان على أن منهج الرسول عليه الصلاة والسلام الذي سلكه في بناء الإنسان على الإيمان والعلم والتزكية، وفي بناء المجتمع على القواعد الراسية التي عمادها الفرد المؤمن القوي، والجماعة المتماسكة المتآزرة هو المنهج الذي يفي بحاجات البناء المتميز المتصوَّر أن يكون ترجماناً حضارياً للمنهج الرباني الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين.

وفي الوقت نفسه: يسلم الفرد والجماعة إلى طريق النماء في شتى جوانب الحياة دون وكس أو شطط. فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما يحرصان الحرص كلَّه على بر أم أيمن رضي الله عنها؛ لأنها حاضنة الرسول ﷺ، وكان هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ حفياً بها يديم برها والإحسان إليها، ومن ذلك زيارتها.

وفي ذلك تحقيق منهما لحسن التأسي به ﷺ كما هو الأمر الإلهي الذي جاء إنشاءً على صورة الخبر، كما أن فيه عملاً بما دعا إليه عليه الصلاة والسلام من توسيع ساحة البر، وأن من هذا البر أن يبرَّ المرء أهل ود من كان المتوفى يبرهم في حياته. ألم تر قول أبي بكر لعمر: «انطلق بنا نزور أم أيمن كما كان رسول الله يزورها».

ثم إن هذه الصحابية الجليلة برهنت على أنها ـ بجانب التربية والحضانة لرسول الله ﷺ ـ تحمل بين جنبيها قلباً مفعماً بالإيمان، وملكة قادرة على تبين الأمور وردها إلى أصولها الكبرى؛ فهي ـ على حبها للمصطفى عليه الصلاة والسلام ـ لم تبك عندما رأت زائريها رضي الله عنهما؛ لأنها لا تعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ؛ ولكنها بكت انقطاع الوحي من السماء. وليس عجباً من العجب أن يذكرنا هذا الموقف بأن للرسول ﷺ النصيب الأوفى من هذا الفهم العميق؛ فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

أن تصل المرأة المسلمة إلى هذا المستوى من حب الله ورسوله، وتذوق ـ على هذه الصورة الأخاذة ـ لحلاوة الإيمان ووعي لمفهومات تلك القضية الكبرى في الإسلام وعياً يبلغ بها أن تبكي لانقطاع الوحي من السماء ـ والوحي مصدر الخير والهداية ومنبع السعادة للعباد في العاجلة والآجلة ـ .. أن تصل المرأة المسلمة في المجتمع الوليد إلى هذا المستوى الذي تتقاصر دونه الأعناق؛ ظاهرة قوة في الظاهر والباطن تدل أوضح دلالة على صلاحية وسلامة المنهج النبوي الذي قام على نور من الكتاب الكريم، وبنى عليه الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى.. المنهج الذي ذلّل الطريق للطاقات كافة أن تعمل عملها في رفع قواعد البناء الخيِّر حيث تتضافر الجهود عن إيمان وتصميم، وتنمو من خلال القيام به طلباً لمرضاة الله عز وجل، حوافز الاستمرار المنتظم عند الرجل والمرأة جميعاً دونما طلب للعافية من المسؤولية، أو استرخاء في حمل الأمانة التي قلدها الإنسان المسلم بين يدي رب العالمين.

والعمل ابتغاء مرضاة الله مهما كلّف من البذل والجهد يظل باعث قدرة متجددة يصحبها انشراح الصدر والارتفاع فوق الصوارف المنبعثة من داخل النفس، أو المتحدية من خارجها؛ فالله جل وعلا لا تخفى عليه خافية ولا يضيع عنده عمل عامل، أوليس هو القائل جل شأنه في سورة النساء:﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ والقائل في سورة النحل:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

فكل شيء عنده ـ سبحانه ـ بمقدار، وما على المكلَّف إلا أن يخترق حجب الصوارف، ويشمر عن ساعد الجد في مزاولة البناء المطلوب إسهاماً في العمل على إنشاء الحياة الإسلامية التي تبرز على الصعيد الإنساني ترجماناً ناطقاً بأحقية دين الإسلام، وأنه المعتصم الوحيد للبشرية التي تعاني ما تعاني هنا وهناك.

وانظر إلى هذا الشمول الذي يتناوله خطاب التكليف ويلقى كل عامل ـ ذكراً كان أو أنثى ـ ما قدَّم، على مختلف الساحات والميادين، ذلكم قول الله جل ثناؤه في سورة آل عمران ـ خواتيمها ـ :﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

وبعد : فإن واقعة الزيارة التي قام بها أبو بكر وعمر لأم أيمن وما أشرقت به من صنوف الهداية والخير: هي بالنسبة لأمتنا زيارة يذكرها التاريخ بكل إجلال، وهي لهذه الأمة الماجدة عنوان التأسي والوعي والتكامل في خُطا السلوك.

ثم هي للنساء ـ بخاصة ـ عنوان وعي المرأة المسلمة المنبعث من إيمانها الصادق، وتقوى قلبها المطمئن بذكر الله ومحبة رسول الله، وعمق تفكيرها على تلك الصورة التي قد لا يتصور الكثيرون أن تكون.

فهل للفتاة المسلمة اليوم أن تدرك دورها الحقيقي في حمل رسالة الإسلام على الوجه الذي يتسق مع تكوينها ومسؤوليتها، الدور الذي نرى صورته في وعي أم أيمن ذات القلب الموصول بالله ، وصاحبة العقل المرتبط بالمنهج الرباني القويم؟!

* * *

من الهدي النبوي... على صعيد البناء

سلامة الغاية والوسيلة

كثيرة كثيرة هي شكاوى الرواد والمصلحين من قلة الإخلاص، وفتور الهمم والعزائم، والنظر إلى الأغراض الشخصية القريبة؛ في إعراض بعض الشيء عند الغايات الكبار التي ينبغي أن تقود الأعمال، وتحرك العزائم على طريق الغاية الكبرى ـ وهي إعلاء كلمة الله ـ.

ولقد يكون من الخير أن نذكّر أنفسنا ومن ولأنا الله أمرهم ـ على سبيل المناصحة والتعاون على البر والتقوَى ـ بأن التعاليَ عن الدنايا، والنهوض بالأعباء الجسام منوط من حيث الغاية والوسيلة بمقدار ارتباط الأمة بمعالم كتابها الكريم، وهدي نبيها عليه الصلاة والسلام، قولاً كان أو فعلاً أو إقراراً، وما كان من سيرته العملية وسير أصحابه عليهم الرضوان، ثم من تبعهم بإحسان، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والعهد قريب بما وقفنا عليه واحد من المعالم القرآنية، من الارتباط النيِّر المكين بين عظم الغاية وإشراقها ـ وهي تحقيق عبودية الله عز وجل في النفس، والأسرة، والمجتمع، وعلى كل صعيد في ميادين الحياة كافة ـ وبين بواعث العمل البنّاء، وحوافزه العميقة ظاهراً وباطناً، ويا له من ارتباط وثيق.

ومعلوم يقيناً توكيد ذلك في قوله تعالى ـ بعد الكلام عن الحقيقة الكبرى وهي الغاية التي من أجلها خلق الله الجن والأنس ـ: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٨].

وفي صورة من صور الممارسة لعملية البناء الوطيدة في الإنسان والمجتمع، نجد في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو يمارس تلك العملية المباركة بالقول والفعل والممارسة والقدوة ـ ما يزيد هذه القضية وضوحاً على وضوح. ذلكم ما روى الإمام أحمد عن حبَّةَ وسواءَ ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً، أو يبني بناءً ـ وفي رواية ـ أو يعمل عملاً فأعنَّاه عليه؛ فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه» ورواه ابن ماجه والطبراني وابن سعد وغيرهم.

أرأيت هذا التوجيه النبوي الكريم ـ وهو صورة من صور البيان للآيات التي مر ذكرها على هذه الساحة ـ بشفافيته في الدخول إلى القلوب، ودقته في التنبيه على بعض الثوابت في الموضوع الذي نلمح إليه؟

«يعمل عملاً» أو «يبني بناءً» أو «يصلح شيئاً». وعندما أعانه ذلكما الصحابيان على ما كان يعمل أو يبني أو يصلح، دعا لهما ثم أوصاهما بهذه الوصية التي تبدو ذات علاقة وثيقة ببناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على سلامة الغاية التي تكون مطمح نظره وهو يكدُّ في هذه الحياة، إلى مولاه، وأن ينهد إليها بما يناسبها من الوسيلة «لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسكما».

إنه لا يريد لهما أن يتجاوزا الحدود في طلب الرزق من أجل أن يصلا إليه، أو أن ينحدرا إلى مستوىً لا يليق بالمسلم الذي من المسلَّمات عنده أن الأرزاق والآجال بيد الله.

فالمسلم يسعى وراء القيام بالواجب، وعندما يفعل ذلك آخذاً بالأسباب المشروعة فإنما تحركه بواعث إيمانية من أعماقه يبتغي من ورائها مرضاة الله عز وجل إنفاذاً لأمره جل شأنه بالسعي وذلك بقوله تعالى في سورة الملك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ ونظائره في الكتاب الكريم، وما جاء في السنة المطهرة في هذا الشأن.

لذا كان اعتقاد أن الأرزاق بيد الله وهو ـ سبحانه ـ الرزاق ذو القوة المتين لا يعني ـ بحال ـ القعود والتهاون والكسل، لا: ولكن يعني ـ كما سلفت الإشارة غير مرة ـ سلامة الغاية وسلامة الوسيلة في إطار العبودية الخالصة لله عز وجل.

فتحقيق العبودية لله تبارك وتعالى في كل ما يأتي المؤمن أو يذر: مطلب أسمى. وما وراء ذلك فإلى الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فالخلق والأمر له وهو رب العالمين.

لقد كان رسو الله ﷺ ـ كما آذن به الحديث المتقدم ـ يمارس ـ وهو القدوة الحسنة ـ عمله في الحياة وأعانه اثنان من رجاله على ذلك، وأراد وهو يعمل على إحكام بنية الإنسان المسلم القادر على الإسهام في عملية البناء الكبرى بآفاقها وأبعادها .. أراد لهما أن يكونا عند الذي أراد ربنا تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

* * *

البنية الاجتماعية
وصور من الهدي النبوي
«١»

ما أحسبني أجافي الحقيقة أو أجفوها إذا قلت: إن الصور العملية التي كانت من هدي النبوة في بيان الكتاب الكريم والتي أشرت إليها من قريب، تأخذ قوتها في الفاعلية والتأثير- بجانب كونها بياناً لمعالم الكتاب العزيز ـ أنها صدرت عن خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام وهو في قلب المعركة، معركة بناء الحياة في عمليته المتعددة الميادين والمتشعبة الأطراف. فهو يقول ما يقول ويفعل ما يفعل ويقر ما يقر من عمل أصحابه، وأداء الأمانة في ممارسة الحياة وارتياد ميادينها بالعمل والتنظيم وفي بناء الفرد والمجتمع وإعداد الأمة إعداداً يتفق مع ما أكرمها الله به من جعلها خير أمة أخرجت للناس، وجعلها كذلك وسطاً تشرف بالشهادة على الناس.. كل أولئك ليلَه ونهاره ـ فداه أبي وأمي ـ ديدنه ودأبه. ولا تسل عن صبره ومصابرته عليه الصلاة والسلام من أجل تحقيق ذلك.

والواقع أن تلك الصور قد استوقفتنا ونحن نرتاد بعضاً من عطاء الآيتين الرابعة بعد المائة والخامسة بعد المائة من سورة البقرة والآية السادسة والأربعين من سورة النساء. ولا تخفى على الناظر في النصوص ملامح النهج اليهودي ـ من خلال تلك الآيات ـ في سلوكهم مع الرسول ﷺ والإسلام نفسه والمسلمين، وكيف دُعي المسلمون إلى أن يقفوا الموقف المتميز بعيداً عن تقليد أولئك الأناسي و اللُّهاث وراء مصطلحاتهم في الفكر والسلوك.

ومهما يكن من أمر فإن الناظر في سنة النبي عليه الصلاة والسلام نظر بصيرة وأمانة لا يعوزه أن يقع على الكثير الكثير من الصور التي تؤكد المقولة المشار إليها بشأن العلاقة الوثيقة ووحدة المنهج بين القرآن في معالمه الغزيرة بالعطاء وبين بيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، بل إن هذه الظاهرة على صعيد البناء وتنمية طاقات الأمة الفاعلة وقدرتها الذاتية في ظل عقيدة التوحيد تنبئ عن نفسها ـ كما أشرت غير مرة ـ وتكاد تستعصي شواهدها على الحصر

فمن حديث رواه البخاري وأبو داود عن أبي هريرة ﷺ: «ولا يقل أحدكم عبدي، أمتي، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي» وعند أحمد «... كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله» الحديث.

هكذا ينهى النبي ﷺ ـ على صعيد العلاقات الاجتماعية ـ أن يقول المسلم عبدي، أمتي وأمر بالبديل وهو: فتاي، فتاتي، غلامي. صحيح أن القرآن الكريم جاء باللفظ على أصله كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[النور:٣٢] ولكن كان ذلك مع أسباب بيان الأحكام على معهود الناس، بدليل أنه قال في موطن آخر: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥] فعبَّر بالفتيات لا بالإماء.

وهكذا يوجه رسول الله ﷺ إلى البعد عن كل مصطلح تشويه شائبة المخالفة لواحدة من حقائق هذا الدين أو تشي باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان كبراً وتعاظماً، فحقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن في المصطلح السابق تعظيماً لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه. يشهد لهذا ما ما جاء في بعض الروايات عند البخاري ومسلم، وأحمد ـ كما سبق ـ ومسلم: «كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله» وما أجمل ما قاله الإمام الخطابي في هذا المقام، يقول رحمه الله: «المعنى في ذلك كله راجع إلى البراءة من الكبر والتزام الذل والخضوع لله عز وجل، وهو الذي يليق بالمربوب».

أرأيت إلى هذا الهدي النبوي في ظل الكتاب العزيز؟ لقد كان له من الأثر الطيب ما كان في البنية الاجتماعية يومذاك، والمحور فيه تمتد أبعاده إلى العلاقات الاجتماعية على وجه العموم والمنطلق المقصود ولا ينحصر بزمان. والحمد لله القائل في كتابه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات: ١٣].

* * *

مرة أخرى... مع البنية الاجتماعية والهدي النبوي في ظل الكتاب «٢»

هذه الجسور المباركة الممتدة بين معالم الهداية في كتاب الله تعالى وبين بيانها من هدي النبي عليه الصلاة والسلام توحي بوحدة المنهج الرباني في القرآن والسنة ما دام رسول الله ﷺ قد قلّد أمانة البيان لذلكم الكتاب المعجز الذي لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

حملني على التذكير بهذه الحقيقة ـ وقد أشرت إليها غير مرة فيما مضى ـ ما يجده القارىء لبعض الآيات الكريمات التي تعرض لشيء من أخلاق النبي ﷺ أو توجهه إلى الاستمرار على مسلكه فيها وفي غيرها، وارتياد ساحات أوسع وأشمل من ساحتها التي هي عليها. ثم ما يجده في هدي النبي ﷺ من توجيه خلقي ينمي الأواصر الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد من المؤمنين ضمن ذلك الإطار المشار إليه.

ها نحن أولاء، نقرأ في سورة الحجر ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الخامسة والثمانين قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

وترى العلاقة واضحة هنا بين طبيعة الرسالة وبين تلكم الأخلاق التي وُجه رسول الله ﷺ إليها. كما أن حصول ذلك في عهد مبكر من عمر الدعوة في العهد المكي: يدل على أن الأخلاق القويمة هي من الأسلحة الماضية على طريق الدعوة إلى الله.

ونقرأ في سورة آل عمران آيات تنزلت بشأن من كان منهم الإصرار في أول الأمر

على الخروج لملاقاة قريش خارج المدينة بين يدي معركة أحد، وكان ذلك منهم ـ رضي الله عنهم ـ رغبة في نيل الشهادة في سبيل الله؛ لأن جلّهم لم يكن له شرف المشاركة في معركة الفرقان (بدر).

نقرأ في هذه السورة بدءاً من الآية التاسعة والخمسين بعد المائة قول الله تعالى خطاباً للنبي ﷺ ـ وهو يزاول عملية البناء الكبرى في حالات السلم والحرب ـ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ نقرأ هذا في العهد المدني، ورأينا في سورة الحجر بعض ما تنزل في العهد المكي.. حتى إذا انتقلنا إلى البيان العملي في هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو يعمل على صياغة المجتمع المسلم وتنمية الأواصر بين الأخوة المؤمنين الذين يتحركون على ساحته في كل ميدان وعلى كل صعيد: نجد من ذلك الهدي قوله صلوات الله وسلامه عليه: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» متفق عليه. وفي حديث رواه البخاري ومسلم أيضاً: «والكلمة الطيبة صدقة» ويروي مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير، المبلغ عن الله ما أراد.

* * *

البناء الاجتماعي...
عوامل التماسك في القرآن والسنة
(لا تحقرنَّ...)
«٣»

في الطريق إلى تقديم المزيد من صور الهدي النبوي ـ بياناً للقرآن ـ على صعيد البناء، وصياغة الإنسان المسلم والمجتمع المسلم وفق ما تمليه عقيدة التوحيد، والمنهجُ الذي تنتظم به شؤون الحياة والسلوك.. في الطريق إلى ذلك: كانت لنا وقفة عند بعض النماذج من حديث رسول الله ﷺ التي كان منها ما روى مسلم من قوله عليه الصلاة والسلام لأبي ذر: **«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»**.

وأنت واجد أن في الحديث حضاً على فعل المعروف مهما كان شأنه، ولو أن يلقى المؤمن أخاه المؤمن بوجه طليق؛ فما بالك بما هو أكثر من ذلك، وكم لهذا التوجه من أثر في تمتين الروابط وشد أواصر الإخوة بين المؤمنين مما يعود على المجتمع بالتماسك والقوة. وهذا من رسول الله ﷺ توظيف للأخلاق ـ وهي مرتبطة بالعقيدة في شرعة الإسلام ـ على ساحة البناء الاجتماعي وتقديم الضمانات التي تنمي فاعلية الجماعة وقدرتها على العطاء، وتقي المجتمع غائلة التخلخل وقعود أبنائه عن التعاون وعقد الخناصر على إنشاء القوة الذاتية التي لن تكون الأمة صاحبة الكلمة بدونها.

والحق أن رسول الله ﷺ كان دائماً على المحجَّة البيضاء بياناً لمعالم الكتاب العزيز.. أجل كان دائماً على المحجَّة البيضاء وهو يعمل بهذا البيان على إنقاذ الإنسان من الضياع والتمزق، ووضع حدٍّ لمرحلة الشقاء التي باعدت بينه وبين ربه

وجعلته يعيش في جفوة مع فطرته التي فطره الله عليها. وكان هذا الإنقاذ عن طريق بناء هذا الإنسان على مفهومات الرسالة الخاتمة، وإعداده إعداداً صحيحاً يمكنه من بناء المجتمع المبرأ من عوامل الهدم والتفكك، ويشعره بحقيقة وجوده الإنساني من جديد.

والقارىء لما قاله عليه الصلاة والسلام لأبي ذر في الحديث المشار إليه: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» لا بد أن يذكر أن عدداً من آي الكتاب الكريم التي عرضت لخلق النبي ﷺكان صنيعه في التوجيه إلى المنهج الأخلاقي ـ كما هو في الإسلام ـ نوعاً من البيان العملي لتلكم الآيات ضمن الإطار العام للمنهج الرباني في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقد رأينا من ذلك من قريب آيات من سورتين كريمتين إحداهما مكية وهي سورة الحجر والأخرى مدنية وهي سورة آل عمران. في الأولى قول الله جلت حكمته: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وجاء في الثانية قوله سبحانه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

وإلى لقاء قريب نسعد من خلاله إن شاء الله بمزيد من عطاء المعلم القرآني في هذه الآيات خصوصاً، والآيات المكية ذات دلالة مبكرة على الحجم الذي يأخذه المنهج الإعلامي في ساحات البناء وتنمية القدرات الفاعلة عند إنسان العقيدة... والله ولي التوفيق سبحانه.

* * *

الجهاد... والبناء

أخلاق النبوة في استجابة للمنهج

«١»

كما أشرنا في صفحات قريبة إلى أن العفو والصفح الجميل وما إلى ذلك من الأخلاق التي كانت سمة التصرف مع الكفار في العهد المكي، جاء الإذن بالقتال في سورة الحج فأشعر المسلمين بجديد في أمرها، أشعرهم بأن الضمانة الأكيدة لانتشار دعوة الإسلام والحيلولة دون المشركين وحلفائهم من اليهود والمنافقين ودون ظلم المسلمين بل والقضاء عليهم وعلى رسالتهم في البناء.. إنما تكون بالجهاد في سبيل الله، أما معاملة أهل الشرك وأعداء الإسلام عموماً بتلكم الأخلاق فقط، فتلك مرحلة انتهت وحلّت مكانها مرحلة الجهاد، خصوصاً وأن المسلمين بعد الهجرة وما أثمرت من التآخي بين المهاجرين والأنصار أصبحوا مهيئين من حيث العدد والعدة ـ بشكل عام ـ لملاقاة الأعداء في مواجهة قتالية تحكمها راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ [الحج:٣٩-٤٠].

والذي أود التنبيه عليه اليوم أن ذلك كله لا يعني الحطّ من مكانة المنهج الأخلاقي أو إزاحته من الطريق، ولكنه تسيير للأمور في مسارها الطبيعي وفق سنن الله؛ وذلك عين الحكمة والصواب! وسبحان الحكيم الخبير:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

على أن المسلك الأخلاقي في العهد المكي قد آتى ثماره ـ كما أشرت غير مرة ـ خصوصاً عند أولئك العقلاء الذين رأوا ما عليه رسول الله ﷺ والمسلمون في ممارسة شؤون الحياة فتحرروا من الهوى والتقليد الأعمى، فإذا هم منصاعون للحق يدخلون في دين الله وتنشرح صدورهم للإسلام.

وهكذا كان من إحكام البناء في تربية المسلم وتنمية قدراته ومؤهلاته لمواجهة الحياة بما تحمل المواجهة من أعباء، ولعمارة الأرض بما يقتضي ذلك من الأخذ بالأسباب في يقظة للتحديات.. كان من إحكام البناء في تربيته وإعداده ـ وهذا ما يجب أن يكون دائماً ـ أن الأخلاق لا تعني الضعف والغفلة، ولا تعني بحال من الأحوال وضعها بديلاً عن اليقظة لكل شاردة وواردة، وعما يجب من بذل الأموال والأنفس في سبيل الله، وإعداد القوة المستطاعة من أجل ذلك.

ولشد ما يستثير النظر، وصف الله نبيه ﷺ بعظمة الخلق في وقت مبكر من رحلة البناء التي كان يقوم بأعبائها في العهد المكي؛ وذلك بصيغة مؤكدة لا تدع زيادة لمستزيد، صيغة هي في الوقت نفسه شهادة من الله تبارك وتعالى لهذا النبي الكريم بتلك المكرمة، ودليل يؤكد حكمته سبحانه في اختياره محمداً عليه الصلاة والسلام للرسالة الخاتمة، وأنه جل وعلا أعلم حيث يجعل رسالته. ذلكم ما جاء في فواتح سورة القلم ـ وهي سورة مكية ـ من قوله جل وعلا: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾[القلم:١-٧].

وإلى لقاء قريب نستهدي من خلاله بعطاء المعلم القرآني في هذه الآيات لنرى كيف أن المنهج الأخلاقي في حياته ﷺ ـ وهو الأسوة الحسنة ـ قيمة عظيمة تأخذ حجمها الطبيعي على ساحة البناء وتنمية قدرة الأمة على دروب البناء ورد العاديات. وصلى الله وسلم وبارك على من كان خُلُقه القرآن.

* * *

إحكام البناء.. والقدوة

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

«٢»

ليس بالأمر العادي ولا القضية العابرة أن يوصف الرسول ﷺ ـ وهو يصارع الشرك وأهله ـ ويواجه ـ وهو يرتاد دروب البناء للإنسان في كل زمان- تحديات كثيراً ما تنأى بأصحابها عن مكارم الأخلاق، وتعمل جاهدة على أن تفتري عليه بما ليس فيه بل بما هو على نقيضه.. ـ ليس بالأمر العادي والأوضاع على هذه الشاكلة: أن يوصف بأنه على خلق عظيم؛ وذلك فيما حملت الآيات التي أشرنا إليها من قريب وهي فواتح سورة القلم من قول الله تبارك وتعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ هكذا تأتي هذه الشهادة الإلهية للنبي الكريم مؤكدة بإنَّ واللام، ووصف الخُلُق بالعظمة﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ولقد يسعفنا بإدراك هذه الحقيقة: أن نكون على تصور سليم لطبيعة المهمة التي كان يضطلع بها رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولما كانت عليه الأمور في الجزيرة العربية وما حولها، ثم في غيرها من بقاع العالم، وكيف أن رحلة البناء التي بدأت بتنزل الوحي، كان منوطاً بها أن تتولى إزالة الشوائب من الطريق، وأن تقصي رواسب الجاهلية عن ساحة التأثير في حياة الفرد والمجتمع، ثم تبني الإنسان بوصفه فرداً في المجتمع ـ ومن وراء ذلك الأمة ـ على المنهج الرباني الذين حملته الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام التي طلعت على الدنيا بنظام كامل للحياة، وعمل رسول الله على تربية جيل يبني الوجود العملي لذلك النظام.

والملاحظ ـ كما يرى في نسق الآيات الكريمات ـ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قد تقدمه نفي لتهمة نسبها الكفار لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك لوناً من ألوان الإيذاء وهو يخوض معركة التغيير. فالله تعالى أقسم بالقلم وما يسطرون على أنه عليه الصلاة والسلام في منأى ـ والحمد لله ـ عما يلصقونه به وينسبونه إليه من صفة الجنون: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ أي لست ـ والحمد لله ـ بمجنون كما يقول الجهلة والسفهاء من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين الواضح لكل من يستخدم عقله كما ينبغي فينسبونك فيه إلى الجنون.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ـ فنرى لوناً من ألوان الإكرام الإلهي للرسول عليه الصلاة والسلام على صبره وثباته وعظيم احتماله؛ وذلك فيما ينطق به قوله تعالى:﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ فلست كما يقول أولئك الجهلة السفهاء، بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم. ومن الواضح أن ما قاله أولئك التعساء كان لوناً من ألوان المواجهة للرسول عليه الصلاة والسلام وهو يجاهد ويجالد ليبني الإنسان بعد أن ينقذه من وهدة الوثنية والخرافة والظلم ويرتفع به إلى المستوى الذي يجعل منه لبنة صالحة في مجتمع متكامل متماسك تحكمه شريعة الله. ويجيء قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ متوجاً لهذه المقولة التي تنفي السوء، وتثبت الأجر الذي لا ينقطع، وتجعل القاعدة الأساسية لتحرك رسول الله عظمة خُلُقه عليه الصلاة والسلام.

وهكذا: تقترن القدرة على تحمل أعباء البناء وارتياد دروبه الشائكة بهذه الشهادة الربانية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ولقد عملت أخلاق رسول الله عملها في تكوين جيل التغيير ،كما عملت عملها في الانتصار على الآخرين... والحمدلله.

* * *

القدرة الفاعلة
وأخلاق النبوة... في البناء
«٣»

عندما يكون الحديث حديثاً عن البناء والطاقة الفاعلة عند الفرد والجماعة، ويدار في ظل التكامل في حلقات التاريخ، يكون الكلام حول أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام: كلاماً عن تلك القيمة الهائلة التي شهدها التاريخ على طريق الرحلة المثقلة بالإنجاز الذي يكاد يستعصي على ـ الإحاطة ـ تلك الرحلة التي قاد خطاها بنفسه صلوات اللّه وسلامه عليه ، وكان الصحابة الكرام رضي اللّه عنهم نعم الجند الأمناء المخلصون فيها، وكان ذلك كله عاملاً مهماً من عوامل حشد ما أمكن من الطاقات والفاعليات لهذه الرحلة..

وهذا ما أشعر الإنسان في الجزيرة العربية بوجوده الذاتي، وأقدره ـ بعون اللّه ـ على بناء المجتمع القدوة الذي أرسيت قواعده في المدينة مهاجَر الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه، المجتمع الذي لا يعوزه واحد من عناصر التمكين والعطاء، ضمن ما يكون من ظروف وملابسات، ليس أقلّها ما كان ينبغي من تجاوز المكروه من أعمال الجاهلية وأخلاقها، وإقرار ما كان على السنن الأخلاقي المستقيم؛ كالذي شهد التاريخ من تقدير الرسول ﷺ لخلق الكرم والنجدة عند حاتم الطائي، حين أمر بعد سبايا طيىء بإطلاق سراح بنته سفانة أخت عدي؛ وبالغ في إكرامها حيث كساها وحملها على راحلة وأعطاها نفقة لها في طريقها إلى أخيها عدي بالشام. رواه أحمد والترمذي وابن إسحاق وأصحاب السير...

وفيما رأينا من فواتح سورة «القلم» وهي: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يستوقفنا هذا الاقتران بين الشهادة للنبي ﷺ بتلك المكرمة التي لا تكاد تجارى، وهي أنه على خلق عظيم، شهادة مؤكدة بـ «إنَّ» و«لام التوكيد» بخطاب له من اللّه وبين القسم من اللّه تعالى بالقلم وما يسطرون، على نفي قالة السوء من سفهاء القوم وجهلتهم، يوم أزمعوا أن يحاربوه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ ويعملوا بكل وسيلة على الحيلولة دون الدعوة الجديدة التي جاء بها وحياً من عند مولاه عز وجل، ودون أن تأخذ طريقها إلى قلوب الناس وعقولهم!

وذلك لأن استمرار زعامتهم على الوجه الذين يريدون مرهون ببقاء أولئك الناس غارقين في كهوف الوثنية الخرقاء، مستسلمين للخرافة والتقليد الأعمى للآباء والأجداد، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

وإذن: فليكن المنهج الخلقي الذي كان عند من بعث ليتم محاسن الأخلاق ﷺ الذي كان سمة التصرف في سلوكه مع الآخرين، من أمضى الأسلحة في مواجهة أولئك الذين أطبقت الجاهلية بظلامها الدامس على عقولهم وقلوبهم، فعموا وصمُّوا، وضاقوا ذرعاً بدعوة الحق التي تقوم على توحيد الخالق جل وعلا، وإفراده بالعبودية والطاعة، يصحب ذلك تحرير العقل من إسار الخضوع لكل ما هو منافٍ للعقل السليم والفكر المستقيم!!

وإذا كنا على ذكر أخلاقه عليه الصلاة والسلام، في الصبر على تكاليف الدعوة ومشاقها، واحتمال الأذى في سبيل إيصالها إلى الآخرين، والقدرة على اشتمال الأحداث والوقائع المرهقة مهما جلَّت واتسع مداها، مستعيناً با للّه عز وجل ثم بمن حوله من المؤمنين الصادقين الصابرين...

إذا كنا على ذكر من ذلك أمكننا أن نخطو الخطوة الأولى بثبات ووعي، في تقدير الحجم الكبير الذي يأخذه على ساحة الصراع في معركة البناء على أنقاض ما سبق، ضمن تلك الظروف الحرجة والملابسات، وصف خلقه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ بأنه عظيم، وبهذه الصيغة من التوكيد في خطاب له عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهذه الصيغة ما أحيلاها وأعذبها وأقواها في التكريم من الرحمن الرحيم لنبيه وحبيبه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم!

فهو ـ جل شأنه ـ لم يقل في هذا الخطاب: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وإنك لعلى خلق ـ وكفى ـ بل جاء التوكيد باللام بعد إنَّ، ووصف هذا الخلق ـ وهو من عطائه ـ بأنه عظيم. ومن هنا كان هذا الوصف منه سبحانه وتعالى أمر عظيم جليل.

هكذا تعمل الأخلاق التي تتجه وجهتها الإيجابية عملها في تحقيق الغايات الكبار.

وعطاء المعلم القرآني في هذه السورة المكية: سورة «القلم» دليل واضح على قيمة السلاح الذي كان سداه ولحمته عظمة الخلق بشهادة الخالق المعطي رب العظمة والعظماء سبحانه، عند الرسول عليه الصلاة والسلام، ودليل في غاية الوضوح أيضاً على ما للبناء الأخلاقي ـ كما نراه في معالم الكتاب العزيز وهدي النبوة قولاً وفعلاً وإقراراً ـ من أثر بالغ في بناء الجيل المزمع إعداده للتغيير إلى ما هو الأفضل والأقوم قيلاً.

وفي ذلك ما فيه من تنميته الفاعلية المهديَّة عند الفرد والجماعة، وحماية المجتمع من مآسي الانحراف وفوضى المقاييس الوافدة، والمصطلحات الطارئة من هنا وهناك.

ألا وإن الغد الذي ترتقبه الأمة منوط ـ بقدرالله ـ بالجيل الذي تحكم سلوكه تلكم الأخلاق: من صدق في العمل طاعة لله ، وصبر على تحمل التبعات، وثبات على متابعة الطريق، ثباتاً تتزحزح الجبال وصاحبه لا يتزحزح، لأنه - بصدقه واستعانته بالله ومراقبته له في كل حركة وسكنة - يأوي بحمد الله إلى ركن شديد.

* * *

القدرة الفاعلة وأخلاق النبوة في البناء

«٤»

ما شهدناه من عطاء المعلم القرآني فيما افتُتِحَت به سورة القلم من قول الله جلت حكمته: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

ما شهدناه من هذا العطاء والحديثُ يدور حول قوله تعالى خطاباً للنبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ يؤيده فيما أعطت الآيات الكريمات لعظمة خلقه عليه الصلاة والسلام من قيمةٍ على ساحة الصراع في ميادين البناء ما تلا ذلك من بعدُ حيث نقرأ قول الله سبحانه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

فأنت واجد هنا أن الأمر لا يقف عند هذا الإكبار لشخصيته عليه الصلاة والسلام، ولكن الآيات الهاديات تُشعرنا بارتباط هذا الأمر بالقضية الكبرى التي من أجلها أوذي رسول الله ﷺ وعودي من قِبل أولئك السفهاء

ففي مناخ معقد من الأوضاع الجاهلية في الجزيرة العربية وغيرها، قام رسول الله ﷺ ـ وهو يبلغ عن ربه ما أراد ـ بارتياد الطريق الأمثل لبناء الإنسان بناء استفاض نوره منذ العهد المكي وبناء المجتمع، وفق ما تمليه الرسالة الخاتمة، وإعادة الطاقات البشرية والمادية المهدرة إلى مسارها الطبيعي، كيما تكون وسيلة إنتاج لخير الإنسان بدل أن تكون طاقة معطّلة أو وسيلة لامتهان الإنسان وظلمه وإهدار كرامته.

وما دامت تلك هي الوجهة في تبيُّن المحور الذي يقوم عليه الصراع، ويكون على الساحة ما يكون من التحدي، فليُنظر إلى ما يترتب على تبرئة رسول الله ﷺ من دعاوى المشركين الضالَّة.

ها نحن أولاء نقرأ قوله سبحانه وما يزال الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

أي فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك مَن المفتون الضال، منك ومنهم!! من الذي يجني على نفسه وعلى المجتمع؟!

كما في قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر:٢٦] وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبأ:٢٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

تلكم هي مقولة الهدى والضلال تشير إليها الآية الكريمة في أعقاب ما مرَّ من الآيات: فهو سبحانه أعلم بمن ضلَّ عن سبيله فجحد الخالق وكان عنصر هدم لمجتمعه وأمته، كما أنه جلَّ شأنه أعلم بالمهتدين الذين يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ ذو الخلق العظيم، وهو يقضي على تُرهات الجاهلية، ويعمل على إزاحة ركامها من طريق الإنسان.

ألا إن عملية البناء الكبرى التي توفَّر رسول الله ﷺ على قيادتها وعَمِلَ على بناء جيل التغيير من أجلها، وتنميته كل ما من شأنه تحقيقها كيما تكون معطياتها وجوداً حياً ناطقاً في كل ميدان. إن هذه العملية صحبها من أول يوم تلكم الأخلاق الفاعلة المحركة التي هي للبناء أبداً والنماء أبداً.

إنها أخلاق سيد الهداة وإمام البناة، وإذا كان هو الأسوة الحسنة صلوات الله وسلامه عليه، فلتأخذ تلكم المقولة حجمها الطبيعي في مسيرة التغيير الذي ينشده المصلحون.

* * *

البيان النبوي... والأخلاق البانية في مواجهة الهدم والهدامين

«٥»

ما وقفنا عليه المعلم القرآني في فواتح سورة القلم التي كان منها قول الله تبارك وتعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ يقودنا إلى شيء من المتابعة لبعض آي السورة لنرى كيف وُضعَ الخُلق العظيم الذي وصف به النبي عليه الصلاة والسلام موضع المواجهة لأعداء الله في تكذيبهم وانحرافهم الخلقي، وكان من أمضى الأسلحة في نصرة الحق الذي يدعو إليه، الأمر الذي يؤكد ما أشرنا إليه فيما سبق من أن أخلاق رسولنا الكريم كانت قيمة هائلة في رحلة البناء التي قادها بنفسه عليه الصلاة والسلام ، وشرع يُعدُّ لها الإنسان المسلم من أول يوم في العهد المكي بعد أن تنزل عليه الوحي من السماء.

وها هي ذي الآيات التي نلمح إليها في السورة نفسها سورة القلم؛ فبعد قول الله جل شأنه:﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ نقرأ قوله سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾[القلم:٨-١٦].

وإذن ففي حومة الصراع بين الحق ـ تقدمه إلى الدنيا كلمة التوحيد ـ وبين الباطل يتدحرج عنواناً للجحود والانحراف.. في حومة هذا الصراع حيث أهل الحق يرتادون للإنسانية ميادين الخير من أجل البناء والإصلاح في مواجهة لسدنة الهدم الضالين المضلين تعلن أخلاق النبوة إعلانها، فترى الكلمات النورانية في كتاب الله تنطق بقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وكأن الله يريد أن يقذف بها على باطل ما عند الآخرين من انحراف خلقي من وراء جحودهم وكفرانهم بالله، فيقول سبحانه مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام:﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ أي كما أنعمنا عليك وأوحينا إليك بالرسالة، وأعطيناك الشرع المستقيم والخُلق العظيم فلا تطع المكذبين برسالتك الجاحدين لدعوتك.

لا تطعهم فتتزلَ ـ ولو على شيء من هواهم ـ فيما يريدون أن يساوموا ويداهنوا:﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ ودّوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق، فهم لا يقتصرون على تكذيبك فيما جاءك من الوحي، ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى الرغبة في أن تترك هذا الذي أوحي إليك من الحق.

ذلكم هو تحرير القاعدة التي يقوم عليها بناء الإنسان صاحب الرسالة من الشوائب، حتى يكون ما هو عليه من الحق قضيةً مسلّمة يستحيل أن يقبل فيها مساومة أو إخضاعاً لنظرية الاحتمالات..

ومن وراء ذلك حتى يكون هو في نفسه أقوى من كل ما يعترض طريقه من رغَب أو رهَب؛ فلا الدنيا بحطامها وزخرفها ومغرياتها، ولا الطغيان العاتي والقهر الظالم، بمزحزحه عن متابعة طريقه ابتغاء مرضاة الله عز وجل، بل إن الشدة لا تزيده إلا ثباتاً ورسوخاً؛ وذلكم من أمضى الأسلحة في مواجهة الطواغيت أعداء الله والإنسان.

هكذا تجد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ هنا وتجد في المقابل: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ الخلق العظيم من رسول الله يواجه الامتحان الصعب على طريق التغيير.. فلا بدع أن يكون الصبر والثبات ـ بعون الله

ـ منه عليه الصلاة والسلام، الصبر والثبات على ألوان من الفتنة والأذى لو انصبَّت على الجبال الرواسي لتصدَّعت من الهول، وكانت منه الكلمة التي تعتبر حجر الزاوية على طريق الدعاة إلى اللّه الذين يحملون رسالة الخير وأمانة البناء لحضارة مثلى هي حضارة الإسلام.. كانت منه الكلمة التي أملاها على التاريخ مخاطباً به عمه أبا طالب: «واللّه يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك دونه».

* * *

أخلاق النبوة... في مواجهة الهدم والهدامين

«٦»

كان لنا مع فواتح سورة القلم التي كان منها قول اللّه تبارك وتعالى يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ شرف رحلة عجلى مع المعلم القرآني وقَفْنا من خلالها على لون من ألوان التحدي الصادر عن المشركين صاحبَ اتهامهم النبيَّ عليه الصلاة والسلام بما هو منه براء، لا لشيء إلا لأنه دعاهم إلى التوحيد ونبذِ ما كانوا عليه من الوثنية والإشراك باللّه عز وجل والاستمساك بتقاليد الجاهلية الجهلاء.

وكان عنوان هذا اللون من التحدّي: ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

وواضح أن السلاح الفعّال في مواجهة هذا التحدي: كان تلك القيمة الهائلة التي ينطوي عليها قول اللّه جل شأنه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

فقد واجه عليه الصلاة والسلام ما يوده المشركون من التحول عن دعوته والركون إلى وثنيتهم وخرافاتهم، واجه ذلك كله بيقين لا يتزعزع بما هو عليه، وثباتٍ على طريق التبليغ منقطع النظير، وصبر يقتحم بإذن اللّه كل ما يكون من أذىً ومعوقات. علماً بأن هذه المواجهة كانت بالقدوة قبل أن تكون بتوجيه من معه من تلك الفئة المؤمنة الصابرة إليها.

ويقودنا المعلم القرآني إلى حقيقة كان لا بد من أن تكون واضحة لدى المسلمين يومذاك، وهم القلة التي تصارع بإيمانها وصبرها قوة البغي وجبروته، تلك الحقيقة هي أن الأخلاق ليست هنا في مسلك أولئك السفهاء الذين تواجههم القلة المؤمنة فه ـ على الأعم الأغلب ـ مغيبة أو مفقودة في هذا الصراع.

فكما أنهم لا يستندون إلى حجة يقبلها العقل السليم، تراهم والجفوة قائمة بينهم وبين أبسط القواعد الأخلاقية إلا القليل النادر منهم في التعامل مع الآخرين.

فبعد قول الله جلّت حكمته وعزّ سلطانه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾. نقرأ بدءاً من الآية العاشرة قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

أين هذا كلّه ـ وهو طابع السلوك عند واحد من زعماء التحدي ـ من ذلك السمو الذي يشرق به قول الله تعالى شاداً أزر النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو يخطو بعملية البناء الكبرى خطواتها الأولى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ إنه الخلق الذي يعمل عمل السلاح الفعّال في المعركة ـ على المدى البعيد ـ فلا خوف من هؤلاء الذين يجاهرونك بالعداوة ؛لأنك تدعوهم إلى كلمة الحق ويريدون منك أن تنزل على هواهم.

أنت تواجههم بالخلق العظيم أمانة وصدقاً ورغبة في إيصال الخير لهم، وهم يواجهونك بهذه الأخلاق الذميمة كالذي ترى في أخلاق هذا الذي سنسمه على الخرطوم.

إن رحلة البناء التي يقودها الرسول عليه الصلاة والسلام: لا مكان فيها لمن يحكم تصرفاتهم هذا اللون من الأخلاق﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ ذلك بأن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي المؤاخذة ويحاول أن يدفع عن نفسه بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى واستعمالها في كل وقت؛ فهو يعالج الانحراف بانحراف أشدَّ منه.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: المهين: الكاذب. وعن مجاهد: المهين: هو الضعيف القلب. وقال الحسن: كل حَلاَّف مكابر: مهين ضعيف. وهذا الحلاَّف المهين الذي نُهِيَ رسول الله عن طاعته والركون إليه ديدنه أيضاً الاغتياب والمشيُّ بالنميمة ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾

إنه الانهدام في شخصية الفرد والداء الوبيل الذي يُمرِّض الجماعة للتفكك والانحلال.

ولقد واجه رسول الله الهدم والهدامين في العهد المكي بذلكم النهج المستقيم الأقوى والأسمى الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وهكذا نرى الآيات تقرر هذه الحقيقة وتكشف من بعدُ عن صنيعها في مواجهة التحدي.

* * *

أخلاق النبوة... في مواجهة الهدم والهدامين

«٧»

لله ما كان أعظمها أمانة تلك التي كان على رسل الله عليهم الصلاة والسلام أن يؤدوها على الوجه المطلوب، وهم يمهّدون ـ كلٌ لمن أرسل إليهم ـ طرائق الخير، ويأخذون بأيديهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا طمأنينة ورضىً على طريق الحركة والبناء الحضاري، ونجاتهم يوم الدين: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾.

وعلى هدي هذه الحقيقة، لله ما كان أعظمها مسؤوليةً في بناء الإنسان والحياة وتنمية كل ما من شأنه سمو الإنسان وازدهار الحياة! تلك التي أؤتمن عليها رسول الله وقد أوحي إليه بالرسالة الخاتمة التي تحمل الهيمنة على ما قبلها، وتتّسع ـ كما شاء الله ـ لنبي البشر في كل زمان ومكان. بدءاً من البعثة المحمدية وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

من هنا: كان التواؤم واضحاً بين ما أؤتمن عليه صاحب الأمة نبينا الكريم في بناء الإنسان والحياة، وبين عطاء الله الذي أُسبغ عليه كيما يقوم بتلك المهمة العظمى خير قيام.

قادني إلى ذلك ما رأينا في كلام سبق من الاتّساق بين كونه ﷺ ـ بشهادة مولاه ـ على خلق عظيم ـ كما جاء في فواتح سورة القلم من قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ ـ وبين ما كان مطلوباً منه أن يواجهه من تحديات المشركين ـ طاعة لله تعالى ـ على ما كان للتحدي من صور وألوان.

وقد رأينا في تلك العُجالة من القول: كيف أن الآيات الكريمات تخاطب الرسول ﷺ بأن لا يطيع ـ نظراً لما لهذه الطاعة من أبعاد ـ كل حلاَّف مهين هماز مشاء بنميم. هذا المخلوق الذي يرفع عقيرته في مواجهة ما أراد رسول الله ﷺ من تغيير الحال التي كان عليها الفرد والمجتمع، ويكذب ويحلف الأيمان الكاذبة ليسوِّغ انحرافه، فيقع في ذل المهانة.

ومن وراء ذلك تراه لا يفتأ يغتاب الناس ويمشي بينهم بالنميمة.

هذا المخلوق الذي ديدنُه الهدم وعرقلة مسيرة الإصلاح، والحيلولةُ دون الكلمة الهادية ودون أن تصل إلى العقول والقلوب.. غير أهل لأن يسمع له أو يطاع ويلتفت إليه، بل الواجب عدم طاعته: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

ويمزيد من البيان لحال هذا الإنسان وأمثاله قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

فهو فظٌّ غليظ القلب سيىء العشرة، مشهور بالسوء واللؤم، أو أنه دعيٌّ في قومه. وهو إلى جانب ذلك كله مناع للخير معتد أثيم.

وانظر إلى ما تحظى به عملية البناء التي وُكل إلى خاتم النبيين محمد بن عبدالله ﷺ أن يرفع لواءها، ويصارع من يقف في طريقها.. انظر إلى ما تحظى به من عناية تشمل مع وضع الأخلاق البانية في مواجهة الهدامين الضالين. وَضْع الفكر الصائب موضعه في معركة البناء، وتعرية الفكر الجاهلي الضال وإظهاره على حقيقته.

ذلكم قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

إذا تليت عليه آيات الله التي قام الدليل اليقيني القاطع على أحقيتها وكونها على وجه اليقين من كلام الله.. زعم أنها أساطير الأولين، لا لشيء، إلا لأنه كَفَر وجنح إلى عدم شكر المنعم سبحانه.

إن الحكم الذي يطلقه هذا الإنسان: صورة من صور الجاهلية التي لا تقيم وزناً للدليل ولا تُخضع الدعوى لحجة أو سلطان.

وطريق البناء الصالح غير هذه الطريق، إنها طريق تكرِّم العقلَ، وتُقيم على كل دعوى دليلها، وتكرم الإنسان فتنأى عن أن يكون ضحية الهوى والعبث الأرعن الذي لا ينتج إلا هدم الإنسان في كرامته ووجوده. وإلى لقاء آخر إن شاء الله نستزيد معه من ضياء المعلم القرآني في فواتح سورة القلم، والله الموفق لا رب غيره ولا خير إلا خيره.



البناء.. وأخلاق النبوة
عائشة رضي الله عنها... والوعي
«١»

هذه كلمات يراد لها أن تكون حديثاً ذا نسب إلى ما جرت الإشارة إليه من قبل من أن صورة من صور الوعي عند المرأة المسلمة التي أُعِدَّت قلباً وعقلاً وسلوكاً وفق المنهج الرباني في بناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ: تبدو في كثير من الوقائع والصور، ومن عيون ذلك ما نقع عليه في مصادرنا الأصلية من تفسير عائشة رضي الله عنها لقول الله جل ثناؤه في فواتح سورة القلم خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

ولئن كان الاهتمام بما بينت أم المؤمنين رضي الله عنها يدعو إليه توكيد ما دعا إليه الإسلام من وجوب البناء السليم للمسلم بناءً متكاملاً متوازناً، سواء في ذلك الذكر والأنثى؛ لأن خطاب التكليف موجه إلى المكلفين جميعهم ذكورهم وإناثهم دون تفريق، وإن اختلفت بعض الأحكام اختلافاً مردُّه حكمة الله في التكوين والاستعداد...

لئن كان الاهتمام بما بينته رضي الله عنها توكيداً لوجوب البناء السليم لكل من المسلم والمسلمة: إن وصف النبي ﷺ من قبل الخالق جل شأنه بأنه على خلق عظيم ـ والصراع محتدم بين صف الحق وصف الباطل أعطى لهذا الخلق العظيم ـ كما سلفت الإشارة من قبل ـ قيمة عظيمة جداً عظيمة في ميدان المواجهة مع أهل الجاهلية الوثنيين، ومعاناة البناء المستأنف للإنسان بعد إزالة الركام الذي هو من مهمات تلك المواجهة يومذاك. والذي من فصائله: أمراض الوثنية والانحراف الخلقي في كثير من الوجوه، ناهيك عن الخضوع للخرافة التي استحوذت على قلوب الكثيرين وعقولهم، وطاعة الهوى والشيطان، والتقليد الأعمى للآباء والأجداد.

ولتكن هذه الكلمات مرقاتنا إلى ما ألمحنا إليه من تفسير عائشة رضي الله عنها للخلق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

جاء في مصنف ابن أبي شيبة: عن معمر عن قتادة. سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» تقول رضي الله عنها: كما هو في القرآن. وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: «سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن».

هكذا كان فهم أم المؤمنين رضي الله عنها، الفهم الذي ينبيء عن فقه دقيق للنصوص، ووعي للحقيقة كما هي؛ إذ إنه ﷺ ترجمان لهدي القرآن في كل أحواله مبلغاً ومعلماً ومربياً ومزكياً وقدوة عملية نمّا هي في حسنها ونورها!

ومهما يكن من أمر فإن عائشة عليها الرضوان تفسر هذا التفسير، والآية المعنيّة آية مكية وهي لم تتزوج بعدُ رسول الله ﷺ؛ إذ كان الزواج بعد الهجرة وهي لا تزال في سن مبكرة.

لقد رأت عائشة بفهمها لأحوال الرسول ﷺ هذا التطابق بين تلك الأحوال، وهدي الكتاب العزيز الذي أؤتمن هو على بيانه بعد تبليغه.

وإنه لفهم يدل على المستوى الذي وصلت إليه المرأة المسلمة في عصر النبوة، وبلغ من هذه الدقة أن تقول: «كان خلقه القرآن».

لقد رأت رضي الله عنها أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بامتثاله للخطاب القرآني أمراً ونهياً، وترغيباً وترهيباً وتوجيهاً، صار سلوكه على هذه الصورة المشرقة سجيّةً؛ إذ ترك كل مراد من مراداته للقرآن؛ فمهما أمره القرآن بأمر فعله، ومهما نهاه عن أمر تركه، والأصل عنده اتباع ما أوحي إليه ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۝٥٠﴾[الأنعام:٥٠] ممسكاً في ذلك كله ـ وهو يبلغ وينذر ويبشر ويبني الفرد والجماعة ـ بعاتق الميزان، فلا يزيغ عن الهدي الرباني ـ وحاشاه من ذلك ـ قيد أنملة، ولا يريم.

هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم حياءً، وتواضعاً، وشجاعة، وكرماً، وصلحاً، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسنها، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم محاسن الأخلاق».

ولا تسل عن الآثار الفعَّالة على طريق بناء المجتمع المسلم القدوة، التي كان يتركها في نفوس جند الإيمان والحق، وهم يرون في أخلاقه وسلوكه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الصورة العملية لما يدعوهم إليه وهو يمسك بزمام القيادة والريادة.

وما يؤكد هذا الذي نقول عن فقه عائشة رضي الله عنها: ما روى مسلم عن سعد بن هشام قال: «سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ! فقالت: أتقرأ القرآن؟ فقلت: نعم، فقالت: كان خلقه القرآن» ورواه عبدالرزاق أيضاً في مصنفه.

وبعد: فهذه إشارة عابرة ـ لا يحتمل المقام أكثر منها ـ إلى نموذج من نماذج الوعي الأمين عند المرأة المسلمة ـ وهي تسهم في بناء الحياة الإسلامية ـ خصوصاً من كانت في موقع التعليم والتوجيه.

إن إحكام البناء في شخصية عائشة ـ بجانب ما رزقت من مواهب، جعلها تربط بين الواقع التطبيقي في أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وبين الآية الكريمة، لتخرج بتلك الحقيقة المستنيرة التي قوامها أن العمل بالقرآن سجية كان خلقه عليه الصلاة والسلام!

فإذا أردت الهداية: فانظر إلى خلقه؛ فهو الخلق الذي يتحرك بالرسالة ليعطيها وجودها الحق، ويكون نعم الأسوة الحسنة والقرآن الناطق حركةً في دنيا الواقع لأصحابه ومن بعدهم الأمة، بل ولكل منصف من بني الإنسان.

* * *

فهم عائشة.. وأخلاق النبوة
في البناء
«٢»

مع الرحلة المباركة التي أسعدنا فيها عطاءُ المعلم القرآني في آيات من فواتح سورة القلم وقول الله تعالى خطاباً للنبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ قادنا الحديث إلى واحدة من صور الوعي الذي بلغته المرأة المسلمة القانتة في ضوء المنهج الرباني في بناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى.. وذلك فيما ثبت عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها من تفسير للخلق العظيم من قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ حيث قالت رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ: «كان خلقه القرآن» وذلك في رواية أغفل فيها اسم السائل. وحين سألها سعدبن هشام أيضاً فقال: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ قالت: أتقرأ القرآن؟ فقال سعد: نعم. فقالت: «كان خلقه القرآن». وكانت بهذا معلمة حكيمة لسعد ومن ورائه الأمة، ومدربة حكيمة على سلامة الربط بين السلوك والحقيقة في كلام الله، لقد أرادت رضي الله عنها ـ وهي تجيب عن هذا الأمر الجلل ـ أن تفهم سعداً أن الأمر لا يحتاج إلى كبير عناء؛ فالذي يقرأ القرآن ويدرك أبعاد أوامره ونواهيه وتوجيهاته، وينظر في سيرة الرسول الكريم وهو يزاول شؤون الحياة تبليغاً للرسالة وتربية للناس عليها، وتطبيقاً لهذه الرسالة في نفسه وفي أهله وفي المجتمع..

الذي يقرأ القرآن وينظر فيما كان عليه رسول الله ﷺ، يُفترض أن يدرك بكل يسر وسهولة: أن خلق رسول الله ﷺ هو القرآن.

فنهجه الخلقي ـ جزاه الله عن الأمة خير الجزاء ـ صورة عملية تطبيقية لهداية الكتاب الكريم؛ ولذلك قالت: أتقرأ القرآن؟ فقال: نعم، وعندها قالت: «كان خلقه القرآن».

هذه الواقعة من عائشة رضي الله عنها، دليل واضح ـ كما أشرنا من قبل ـ على مدى الوعي الذي بلغته المرأة المسلمة ــ وخصوصاً من كانت في موضع الريادة والتوجيه والتعليم ــ وهذا الوعي ثمرة من ثمرات البناء الذي أحكمت لبناته على أساس من عقيدة التوحيد؛ الشجرة المباركة الوارفة الظلال التي يمتد رواؤها المبارك إلى كل جانب من جوانب المجتمع. وأن الرجل والمرأة في شرعة الإسلام مخاطبان بما جاءت به الرسالة الخاتمة.

ومن مظاهر الكمال في هذه الرسالة الربانية: ما كان من تكريم المرأة وتشريفها بالمسؤولية في خطاب التكليف بعد الذي كانت عليه في الجاهلية من وضع لا يليق بلغ مبلغ أن يزعم المشركون على محور من الهزء بالأنثى أن الملائكة بنات الله، وقد افترقت عن الرجل بأحكام محدّدة مردها إلى طبيعة التكوين، كما اقتضتها حكمة البارىء المصور سبحانه، وكما جرت الإشارة إلى ذلك غير مرة.

ولكم يُحسن من بيدهم مقاليد الإعداد والبناء ـ حين تتوافر لهم حرية التصرف الإيماني المدروس ــ أن يتقوا الله في أن يزيدوا بمعرفة ومنهجية من تنمية الوعي الحقيقي عند الفتاة المسلمة؛ كيما يعود إليها اعتزازها بالانتماء إلى تلكم المنابع الخيرة التي هي من سمات خير أمة أخرجت للناس، والتي قامت عليها حضارة الإسلام التي أثبتت وجودها الخيِّر على الدوام، وأعطت للدنيا أفضل النماذج من مثل عائشة وخديجة وسمية وأضرابهن.

إن رحلة التغيير التي ينشد سلامتها المصلحون والتي يريدونها ذات نسب أصيل إلى الإسلام.. إن هذه الرحلة بأمس الحاجة إلى أن تأخذ المرأة المسلمة الواعية مكانها الطبيعي فيها لتعطي عطاءها المنشود في إعداد الجيل والإسهام بدفع

القافلة إلى الأمام، الأمر الذي يؤكد التزام ما جاء به المنهج الرباني من تبصير المرأة بالرسالة، وإعدادها إعداداً يتناسب مع خطاب التكليف الذي وُجه إليها كما وجه إلى الرجل..

كما يتواءم مع ما تصبو إليه الأمة من تحوُّل جذري في عالمي التصور والتطبيق.. فتسلَمَ لهذه الأمة مواردها البشرية كما ينبغي، ويكون في مقدورها أن تنمِّي مواردها المادية الأخرى، وتضع ذلك كلَّه في مواجهة الواقع الذي تعمل على تجاوزه، بل وصياغة واقع جديد غيره على هدي الرسالة التي يتحرك الجيل تحت رايتها واضعاً نصب عينيه أداء الأمانة بصدق وإخلاص في كل ميدان من ميادين العمل البناء والإنماء المطلوب.

* * *

فقه خديجة
وأخلاق النبوة في البناء
«١»

الفكر السليم الذي يتجاوز الحدود زماناً ومكاناً، وهو ما نجده في منهج البناء القويم، كما هو في معالم الكتاب العزيز وبيانها من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

هذا الفكر ـ من حيث استناده إلى قاعدة الإيمان السليمة ـ لا يعدو عليه الفاصل الزمني مهما بلغ من القرون؛ فهو قادر على العطاء دائماً إذا سلمت النيات وصدقت العزائم في ظل المعرفة والوعي.

وعلى هدي هذه المقولة: تبدو النماذج التطبيقية لهذا الفكر، وهي ذات أثر فعّالٍ في الحاضر، كما كانت ذات أثر فعّال في الماضي.

ومن أجل ذلك: كانت لنا وقفة مع واحدة من صور الوعي عند المرأة المسلمة التي أحكم بناؤها على الإسلام، وذلك فيما رأينا من تفسير عائشة رضي الله عنها للخلق العظيم الذي عنته الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ وذلك واضح عنها من القول، بأن خلق رسول الله ﷺ هو القرآن. ومن هنا وصفه الله بالعظمة، وكان ذلك في وقت مبكر من عمر الدعوة إذ جاء ذلك في العهد المكي، وكانت السورة مكية، وهي سورة القلم.

والحديث عن هذا الوعي الذي نشأ وتنامى على طريق التغيير لما كانت عليه المرأة في الجاهلية إلى واقع جديد يتسق مع فطرتها وتكوينها كما خلقها الله،

ويضعها في موضع المسؤولية يقودنا إلى واقعة أخرى من الوعي ـ وما أكثر هذه الوقائع ـ نجدها في تاريخ خديجة رضي الله عنها، كانت مبكرة أكثر في عمر الدعوة؛ لأنها في أعقاب ما فجأ النبي ﷺ من الوحي أول مرة.

فالأمر من الناحيتين التاريخية وطبيعة الواقعة نفسها مختلف في هذه الواقعة عن سابقتها بعض الشيء؛ إذ إن عائشة رضي الله عنها أدركت بنفاذ بصيرتها ووعيها المستنير لطبيعة الرسالة وما كان عليه رسول الله ﷺ أن أخلاقه صلوات الله عليه صورة عملية للقرآن امتثالاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، ووقوفاً عند حدوده، في كل ما جاء به، قولاً وعملاً وقدوة، في خاصة نفسه وفي أهله وبيته، وفي تعامله مع المسلمين، ونصحه للأمة.

أما خديجة رضي الله عنها: فقد كانت على مثل الجبال الرواسي يقيناً بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ بما يتسم به من أخلاق كريمة وسمو لا يُجارى في السلوك ـ لن يخزيه الله أبداً.

الأخلاق وحدها جعلتها تحكم أن عدالة الله تتنافى مع أن يضام من يتصف بما اتصف به محمد بن عبد الله.

قررت ذلك قبل أن تعلم حقيقة ما سيكون عليه رسول الله ﷺ، ولا المهام التي تنتظره على أرض التاريخ.

كان ذلك يوم عاد إليها رسول الله ﷺ بعد أن فجاءه الوحي كما روى الشيخان وغيرهما. بغار حراء، وعاد إليها - صلوات الله وسلامه عليه - يرجف فؤاده، فدخل عليها فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة رضي الله عنها وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت له خديجة: كلا والله ما يُخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..

هذا ما كان من خديجة وقد خاف رسول الله ﷺ على نفسه من هول المفاجأة «كلا والله ما يخزيك الله ـ أو ما يحزنك الله أبداً ـ وذكرت من أخلاقه أنه يصل الرحم، ويحمل الكلّ ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويمين على نوائب الحق» وهي صفات من بعض مكارم أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

إن خديجة رضي الله عنها بحصافتها البالغة ومكانتها في قومها لم تكن غافلة عما كان يضج به المجتمع الجاهلي بالمساوىء وكبير الجفوة بين بني قومها وبين الحنيفية السمحة ملة أبيهم إبراهيم، والانحراف ـ في كثير من الأحيان ـ عما تقتضيه مكارم الأخلاق.

من أجل ذلك تطلع علينا الحقيقة التي طرحتها ـ عليها الرحمة والرضوان ـ وهي أن أخلاق رسول الله ضمانة أيُّ ضمانة ضد الأذى والخزي، فضلاً عما خافه على نفسه ﷺ؛ فحاشا لله وهو الحكيم الخبير سبحانه أن يخزي من له هذه الأخلاق.

ولعل من الخير أن نورد النص بكامله فيما نستقبل من الكلام إن شاءالله، كيما نستزيد من عطاء المعلم القرآني في واحدة من جوامع الكلم في القرآن الكريم وهي قوله تعالى مسلياً نبيه ﷺ دالاً أمته على باب من أوسع أبواب القوة والتمكين ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وكيما نستضيء بواحدة من مكارم خديجة ونحن نتطلع إلى بناء متجدد للفرد والمجتمع وتنمية طاقات الأمة.

* * *

البناء... وأخلاق النبوة
وفقه خديجة المبكر
«٢»

البيان الجامع الذي دل على ما بلغته عائشة رضي الله عنها من رفيع المستوى وعياً وفقهاً لطبيعة الرسالة والمنهج الأخلاقي للرسول ومدى الصلة بينهما.. والذي كشف للأمة عن سر العظمة التي وصف الله بها خُلُق رسول الله ﷺ في قوله جل شأنه خطاباً له عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ وذلك بقولها: «كان خلقه القرآن»... هذا البيان المتميز الذي بدا صورة عن الإحكام في بناء المسلم ذكراً كان أو أنثى، قادنا إلى موقف من مواقف خديجة رضي الله عنها الذي يكاد يكون عديم النظير في تاريخ الدعوة إلى الله وثقل العبء فيها؛ إذ شهدت بحصافة بالغة مشرقة، وبصيرة متفتحة، وعقل مستنير، أول خطوة خطاها رسول الله ﷺ وهو يسلك طريق البناء على هدي المنهج الرباني، بعد أن فجأه الوحي بغار حراء وقد راعه ذلك شديد الروع حتى خاف على نفسه، وتنزلت عليه الآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

ونحن اليوم على موعد مع القصة بكاملها كما وردت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها حيث أخرجها أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وكان التاريخ فيها على موعد مع الكشف عن عظمة خديجة رضي الله عنها.

ولفظ البخاري كما جاء في «الجامع الصحيح» ما روى بسنده عن ابن شهاب الزهري عن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم وفي رواية لمسلم: الرؤيا الصادقة

في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فَلَق الصبح، ثم حُبب إليه الخـلاءُ، وكان يخلو بغار حراء ـ فيتحنثُ فيه ـ وهو التعبد ـ الليالِيَ ذواتِ العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزودُ لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها.

حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهدَ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانيةَ حتى بلغ مني الجَهدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾».

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجة بنتِ خويلد فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع؛ فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي». فقالت له خديجة: «كلا والله ما يخزيك ـ أو ما يخزيك الله ـ أبداً إنك لتصل الرحمَ، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

ولنا عودة ـ إن شاء الله ـ إلى هذه الواقعة العظيمة نتبين من خلالها بعض الأبعاد التي تفيض بها وتشرق، لنرى ـ مع حقيقة أن محمداً ﷺ رسول من عند الله يوحى إليه ـ كيف أن خديجة رضي الله عنها كانت نعم العون من أول يوم عُهد فيه إلى رسول الله ﷺ بأمانة البناء، بناء الإنسان والحياة وتنمية الطاقات الفاعلة بعيداً عن أوضار الجاهلية كما أراد خالق الإنسان والكون والحياة.

وهكذا أدلت بدلوها عليها الرحمة والرضوان حصافةً، ورجاحة عقل وجزالة رأي، وكانت نعم القوة المسعفة في مشقات ما أكرم به ﷺ مع الريادة وتحمل أعباء البناء في ظروف كانت الإنسانية تعاني من شدتها ما تعاني، وترتقب الفجر بعد ليل عم ظلامه حتى بُعث محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وآذن التاريخ بفجر جديد.

* * *

أخلاق النبوة... والبناء

وكلمات خديجة من أول يوم

«٣»

هذه متابعة بما العهد به قريب من كلمات خديجة رضي الله عنها يوم عاد إليها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده بعد أن فجأه الوحي، وأشرق في صدره نور الحق، وتنزل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

أجل، لقد رجع رسول الله ﷺ في ذلك الوقت الذي كان مبتدأ إكرامه بالرسالة الخاتمة، بعد أن غطّه الملك ثلاثاً ـ كما ثبت في الصحيح ـ يرجف فؤاده، وفي رواية لمسلم: «ترجف بوادره» ـ وهي بين المنكب والعنق تضطرب من الفزع.

ومن الواضح أنه عليه الصلاة والسلام، لم يُخفِ ذلك، ولم يتظاهر بغيره؛ فقد قال بعد أن دخل على زوجه العاقلة الحانية المتميزة بحصافتها وسلامة تفكيرها: «زملوني زملوني» حتى ذهب عنه الروع، فقال لها ـ رضي الله عنها ـ وأخبرها الخبر العظيم: «لقد خشيت على نفسي».

وهنا، أمام هذه الحال التي كان عليها سيد العالمين وإمام المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام، دونما غفلة عن حقيقة الواقع الأليم الذي كانت عليه الجاهلية من حول ذلك البيت الكريم، قالت رضي الله عنها: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً» وفي رواية: ما يخزيك الله أبداً.. دون قسم.

إن ثقة خديجة بما تقول، تقديراً حقيقياً منها للسمو الخلقي الذي كان يتمتع به رسول الله ﷺ، والذي يرتدُّ إلى مكارم الأخلاق التي كان يتحلّى بها عند التعامل مع الآخرين: جعلها تبدأ به «كلا» الكلمة التي تفيد النفي والإبعاد..

بل دلت بعض الروايات، على أنها قابلت الخوف الذي اعترى زوجها العظيم محمداً عليه الصلاة والسلام، وهي تدرك من عظمته من خلال الحياة المشتركة ما تدرك.. قابلت ذلك الروع ــ مع كلمة كلا ــ بالبشارة تزفها إليه بأن الله لن يخزيه أبداً، وكأنها تقول: مما يتنافى مع العدل الإلهي ــ وحاشاء لله ذلك ــ أن يصيبك الخزي وأنت على هذه الحال من كريم الأخلاق، وحميد الصفات، التي كان الجميع ــ حتى أعداء دعوته ــ لا يمارون فيها من بعد.

ففي رواية مسلم: «كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً».

لقد أرادت ــ رضي الله عنها وأرضاها ــ أن تبعد أي خاطرة سوء عن الواقعة، وعبرت عن ذلك تعبيراً يحمل منتهى اليقين والجزم حين قالت: «كلا»، بل طلعت على الدنيا بما رأته برجاحة عقلها، وصفاء نفسها، عنوان خير وتكريم لهذا الزوج المبارك عليه الصلاة والسلام؛ فبشرته ــ بالأسلوب نفسه ــ بأن الله لن يخزيه أبداً.

هكذا بعد الروع الذي كان يعتريه صلوات الله وسلامه عليه، يكون منها النفي الجازم لأي لون من ألوان المضرَّة والسوء، والبشارة العظيمة بالخير الوفير.

والذي دلَّ ــ أعظم الدلالة ــ على رجاحة عقلها ــ كما أسلفت ــ واستنارة فكرها وصفاء نفسها: ما علَّلت به هذا الذي جزمت به حين قالت باللهجة الحاسمة المتفائلة التفاؤل كله، مصدرة ما تقوله بالقسم: «والله إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». هذه رواية البخاري، وزاد مسلم: «تصدق الحديث»...

إنها خصال سبع، كل واحدة منها: عنوان مشرق واضح على مكارم الأخلاق، فما بالك وقد اجتمعت كلها منقادة لسلوك المصطفى عليه الصلاة والسلام، لا تبرح هذا السلوك بحال؟!.

لقد أحسنت ـ أعلى الله مقامها في الآخرين ـ إحكام الربط بين المقدمة والنتيجة؛ فمن كان على هذه المكارم المشرقة من الأخلاق، والسمو الذي لا يجارى في مجتمع يلفه ظلام الجاهلية ـ على ما كان من بعض الأخلاق الكريمة هنا وهناك ـ ويعبث في أرجائه الهدم والهدامون.. محال أن يخزيه الله؛ فليس من العدل مقابلة الإحسان بالإساءة، والله تبارك وتعالى منزه عن كل ما يتنافى مع صفات الكمال المطلق؛ فله ـ جل شأنه ـ الصفات العلى والأسماء الحسنى، ولا يظلم ربك أحداً.

إنه ـ جل شأنه ـ يريد من عباده أن يصلوا الرحم، ويصدقوا الحديث، ويحملوا الكلَّ، ويكسبوا المعدوم، ويقروا الضيف، ويعينوا على نوائب الحق.

وتلكم من أهم العوامل في تماسك المجتمع، وتحقيق الوجود الذاتي للإنسان الذي كرَّمه الله تعالى وخلقه في أحسن تقويم، و رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك كلَّه، سجيَّةً ودون تكلف.

وإذن؛ فالبشارة من خديجة ـ بعد نفي ضدها ـ تأتي في موقعها الطبيعي بعد تلكم المقدمات، وكما ألهمت أن تعبر عن ذلك بكل وضوح!!

وعلى هذا: فما حصل لمحمد عليه الصلاة والسلام في الغار: عنوان جديد على فضل من الله تبارك وتعالى، له ما بعده.. وقد كان ذلك ـ والحمد لله ـ وسعدت الإنسانية بالإسلام الذي أوحي به إليه صلى الله وسلم وبارك عليه!

وبعد: فكيف تنسى ما كان لهذا الموقف الرائع العظيم الذي شرَّف التاريخ بتسجيله، من خديجة عليها الرحمة والرضوان ـ ضمن الظروف المعروفة والملابسات ـ من شدٍّ لأزر النبي ﷺ، وكريم معاونته في أول مرحلة من مراحل العهد الجديد، عهد ائتمانه على الرسالة الخاتمة ـ والدنيا تمور بالوثنية، وظلام الخرافة، والعدوان على الإنسان وعقل الإنسان ـ ؟!!

وكان مقتضى هذا الائتمان: تحميله أمانة التبليغ، وبذل الجهد الجاهد في إنشاء واقع جديد لإنسان الجزيرة العربية، ثم من وراءه على ظهر هذا الكوكب، بعد أن عم الظلام وطمَّ، فمن وثنية معلنة إلى وثنية مقنعة عند الكتابيين الذين يزعمون أنهم على هدي كتابهم المنزل، إلى فوضى لا يستقيم معها نظام، ولا أثارة من عدل عند أهل النفاذ والنفوذ، حتى إنك لو قررت أن أرجاء الأرض كلها كانت تترقب نوراً يزيل الظلمات، ما عدوت الحقيقة.

وصدَّق ما ألهمته خديجة، وتتابع الوحي وحمي، وبدأ نور كلمة التوحيد يزيح بإشراقة ظلام القرون، ويرسم منهج التحويل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك بإخراج الناس من عبادة العباد، والأنداد والأضداد إلى عبادة اللّه الواحد، وكان ذلك إيذاناً بأن عهداً جديداً تعاد للإنسان فيه إنسانيته وحريته وكرامته، قد بدأ بما أوحي به إلى محمد بن عبد اللّه زوج خديجة بنت خويلد عليها من اللّه الرضوان.

* * *

البناء.. وقراءة التاريخ
وخديجة رضي الله عنها
«٤»

قراءة التاريخ قراءة واعية وفق منهج سليم للتحليل التاريخي: تعين على سلامة التدبر للوقائع وما تحمل من عظات وعبر، كما تثمر الإدراك المتبصر لطبيعة الترابط بين المقدمات والنتائج التي تسير وفق سنن الله التي لا تتحول ولا تتبدّل..

ناهيك عما تحققه من فقه للمقومات الأصلية التي ازدانت بها مسالك من أسهموا في صناعة ذلك التاريخ، وكان الواحد منهم ـ كائناً ما كان الثغر الذي أقامه الله عليه ـ ترجماناً عملياً في حركته وسلوكه للقيم التي قام عليها بأحداثه ومشاهده، في شتى الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وما إليها، وشاهداً أميناً واعياً للعصر الذي عاش فيه.

وهذه القراءة المعنية في حديثنا تبدو اليوم والله أعلم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ ضرورة من ضرورات البناء، وتنمية الطاقات الفاعلة المثمرة عند الجيل المرشح للتغيير، في إفادة واعية من ثمرات التطور العلمي وغيره، وثبات على القيم التي كانت بها أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، وإعداد الفرد ـ ذكراً كان أو أنثى ـ كيما يكون أهلاً لهذه القراءة المتميزة من البدهيات التي يجب أن تكون في حسبان المؤتمنين على التثقيف والتربية والإعداد!

أسوق هذه الكلمات وأنا بسبيل مواصلة الحديث عما وقفنا عليه المعلم القرآني من دلالات مضيئة معلّمة لقوله تعالى في فواتح سورة القلم خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ ثم ما أسعدنا به موقف خديجة

رضي الله عنها، ساعة رجع رسول الله ﷺ من غار حراء يرجف فؤاده، وقد خشي على نفسه من هول المفاجأة، حيث قالت: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً» أو «كلا أبشر فو الله لا يخزيك الله أبداً».

هذا الموقف الذي كان المحور فيه ما تعلم حقَّ العلم، من مكارم أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وتعاليه على سفاسف الأمور، والمنهج الذي درج عليه في التعامل معها، ومع الآخرين.

وإنه لعطاء جزل في بناء المرأة المسلمة تحققه ـ بلا ريب ـ القراءة المومى إليها، لموقف هذه السيدة التي تتصدر فضليات التاريخ، وما دل عليه من حصافة حكيمة، وجزالة في الرأي وبصيرة في ربط النتائج بالمقدمات في ظل الإيمان بعدالة الله المطلقة ورحمته بعباده.

ومن ذا الذي ينكر ما كان لهذا العطاء من أبعاد في شد أزر النبي ﷺ في تلك الساعات المثقلة بالترقب ومعاونته في تحمل أعباء المهمة الفريدة التي أؤتمن عليها، وهو يواجه جاهلية باضت وفرَّخت، حتى السلطان الذي لا يكاد ينازع للوثنية والظلم والخرافة، وكل ما فيه العدوان على إنسانية الإنسان والوقوف في وجه البناء السليم المحكم لهذا الإنسان، وللمجتمع الذي يكون هو إحدى لبناته.

لقد تنزل القرآن في العهد المكي بقوله تعالى في فواتح سورة القلم: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ ولكن العلماء استوقفهم من خديجة رضي الله عنها ذلك الموقف الذي اتسم بنفاذ البصيرة وجزالة الرأي حين دفعتها أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام إلى الحكم الذي جزمت به والوقفة الصادقة بجانبه صلوات الله وسلامه عليه. جاء في كلام الإمام النووي حول هذا الموقف المشار إليه: قال العلماء رضي الله عنهم: (معنى كلام خديجة رضي الله عنها أنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل. وذكرت ضروباً من ذلك. ثم أردف ذلك

بقوله: وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء. إلى أن قال رحمه الله: وفيه تأنيس من حصلت له مخافة من أمر وتبشيره. وذكر أسباب السلامة له. وفيه أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضي الله عنها وجزالة رأيها وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها).

حين تذكر عائشة وخديجة ومن سار على طريقهما وعياً واستمساكاً بأهداب الحق لا يبتغى من وراء ذلك تمضية الوقت وتزجية الفراغ، ولكنها أمانة الإسهام في الدلالة على تكلم المعالم التي صنعت تاريخ خير أمة أخرجت للناس وموقع المرأة المسلمة التي تربت على العقيدة وإدراكه ما تمنيه مسؤولية التكليف وخطابها بأمور الرسالة، موقع هذه المرأة في صناعة تاريخنا لا ينكره إلا مكابر فهل تكون أسوتنا عند البناء والإعداد: أولئك اللواتي تفخر بهن حضارة الإسلام، تنمي الاعتزاز بهن وصدق العزيمة في استئناف الطريق التي سلكتها ببصيرة وثبات..

* * *

الله أعلم حيث يجعل رسالته

أخلاق رسول الله ﷺ .. وأمانة البناء..

وفهم خديجة

«٥»

ذو البصيرة المتأمل فيما كان عليه رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام من الخلق العظيم وهو يبلغ الرسالة، ويؤدي أمانة البناء المنشود في نور قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[الجمعة:٢] ويعمل جاهداً على تنمية الطاقات الفاعلة، والإحساس بعظم المسؤولية عند الإنسان المسلم ـ على ثقل ما يحمِّله ذلك من أعباء ـ.

المتأمل في ذلك، مع ملاحظة الأبعاد الشاملة التي كشفت عنها زوجه خديجة رضي الله عنها في صفاته الخلقية عليه الصلاة والسلام، وما صدر عن عائشة رضي الله عنها من تعريفٍ لخلقه صلى الله وسلم وبارك عليه بأنه القرآن، يتبيَّن بالغ الحكمة الإلهية في اصطفائه للرسالة الخاتمة، واشتماله على بناء الإنسان والحياة وفق هذه الرسالة التي بعث بها للناس كافة بشيراً ونذيراً.

وهي قضية كبرى تأتي مصداقاً لما قرره الكتاب العزيز بأن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته؛ ذلكم ما جاء في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة الأنعام، من قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فالله سبحانه هو الذي يعلم الموضع الصالح لوضع رسالته فيه، وهؤلاء المكذبون ليسوا أهلاً لها، كائنة ما كانت دعاواهم، والمقاييس التي يقيسون بها الأمور!!

لقد كان الجاحدون لرسالة الهدى التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام من عند ربه، إذا جاءتهم آية ـ حجة ـ من الله وبرهان قاطع على نبوته صلوات الله وسلامه عليه، قالوا: لن نؤمن حتى نُعطى مثل ما أعطي رسل الله، فتأتينا الملائكة من عند الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل، وتكون لنا المعجزات الباهرات، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [٢١-٢٣].

على هذه الشاكلة كان استقبال المشركين العتاة للحقيقة في رسالة محمد ﷺ التي ملأت بضيائها السهل والجبل والبطاح، وكان برهانها قوة النفاذ كلها، والمضاء المشرق كله؛ لأنهم ينظرون إلى ما دعوا إليه من خلال نفوسهم وأهوائهم، ورغبتهم في الزعامة والتعالي من أي طريق..

فمرة﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ ومرة أخرى: ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ وثالثة:﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف:٣١].

وجاء الجواب الحاسم الذي يكشف عن علم الله المحيط، وحكمته البالغة في اصطفائه لمن يصطفي من عباده كي يحمل الأمانة، فقال تعالى كما رأينا في سورة الأنعام ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

فهو ـ جل شأنه ـ أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصطفيه لذلك، وإليه الخيار سبحانه وحده، في ذلك؛ لا لمن أرسل الرسول إليهم؛ لأنه هو الخالق الحكيم، وهو العليم بما فيه صلاح خلقه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ومن ثمَّ: فإن العاقل المتبصِّر في تلكم المسؤوليات الجسام التي ألقيت على كاهل النبي الأمي ﷺ يوم عهد إليه بالرسالة، تبهره تلك الحكمة الإلهية البالغة في اختياره عليه الصلاة والسلام لحمل تلك الرسالة وهو أمي من أولئك الأميين، وائتمانه على ما يوجبه ذلك، من بناء الإنسان على هديها بناءً يمكنه من تحقيق عبودية الله في الأرض ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧] ناهيك عن الإفادة الموضوعية مما سخرالله في هذا الكون العريض، وجاءت المنجزات العلمية الهائلة لتزيد المؤمن يقيناً بهذا الذي نلمح إليه.

وذلك في أحد وجهيه: نعمة جُلَّى أنعم الله بها على الأمة المحمدية، وفي وجهه الآخر: حجة قائمة على تلك الأمة أنه لا سبيل إلى التحويل الصحيح إلى ما هو الأفضل والأقوم، والتغيير الذي يعيد النعم التي حجبت بسبب تغيير ما في الأنفس، ومنها القدرة على إنشاء واقع جديد تحكمه شريعة الله وتجد الأمة فيه ذاتها على الصعيدين الداخلي والعالمي، وتحظى بمرضاة الله...

نعم إنها الحجة القائمة على أنه لا سبيل إلى ذلك كله إلا بالعودة إلى منهج البناء الذي مارسته يد محمد ﷺ الصناع، وقد اختاره الله لهذا الأمر الجلل، فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وما أكثر ما تقع عليه في سيرته البناءة عليه الصلاة والسلام مما يزيدك يقيناً على يقين بصدق قوله تعالى:﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

* * *

الأخلاق وأهلية الرسالة.. والبناء في مواجهة الجاهلية

في نظرة فاحصة إلى ما يرى الناقد البصير من التواؤم الواضح كل الوضوح بين ما كان عليه رسول ﷺ من تميُّز في مكارم الأخلاق، ومن أهلية لحمل الرسالة الخاتمة كما اقتضت حكمة الله ـ وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ـ وبين التبعات التي حُمِّلها، فكان كفاءها القادر ـ بعون الله ـ على حملها كما كان مراداً لها أن تُحمل... في نظرة فاحصة إلى ذلك نشهد مرة أخرى ما وقفنا عليه المعلم القرآني من ذلك القبس المنير الذي أشرق به عطاء الآية الرابعة والعشرين بعد المائة في سورة الأنعام من قول الله تبارك وتعالى:﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

فالواقع أن الآية الكريمة ـ كما كشفت عن صورة من صور المكر الجاهلي التي عمد إليها المشركون، هروباً من الإيمان بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ـ تكشف عن ذلك العوج الذي اتسم به سلوكهم ـ مع دعاواهم العريضة في الفهم والتقدير ـ يوم لم يستعملوا عقولهم نشداناً للحق؛ فيقابلوا الحجة القاطعة بالحجة القاطعة مثلها ـ أن لو كان عندهم ذلك ـ ويخضعوا للحقيقة التي قام عليها البرهان، زاعمين أن لديهم الحجة التي تقلب دعوى محمد عليه الصلاة والسلام، وهي في الحقيقة حجة داحضة كما جاء النص على ذلك في القرآن الكريم، حيث قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشورى:١٦].

هكذا تأتيهم الحجة القاطعة للشك، والبرهان الساطع سطوع الشمس في رابعة النهار، على أن محمد بن عبدالله الذي هو من ذؤابة الشرف فيهم، وما عرفوه إلا بالأمانة والصدق والاستقامة، حتى كان مضرب المثل عندهم في ذلك.. فيفرون من هذا كله إلى شرط غريب عجيب يشترطونه لإيمانهم، وهو أن يؤتوا مثل ما أوتيَ رسُلُ الله ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

وقد سمى الله كفرهم وعدوانهم على الحقيقة إجراماً، وتوعدهم على ذلك بالذلة الدائمة في الدنيا وعذاب شديد يوم القيامة، وذلكم ما ختمت به الآية المومى إليها من قوله تعالى :﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فكما أنهم استكبروا عن الحق، وجحدوا الآية الدالة عليه ماكرين، أعقبهم ذلك ذلاً يوم لا ينفع مال ولا بنون جزاء استكبارهم وعتوهم في الدنيا، كما قال تعالى في سورة «غافر»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر:٦٠].

ولعلنا لا نبعد النجعة، إن نحن ذهبنا إلى أن عطاء المعلم القرآني في الوجه الآخر من دلالة الآية ـ وهو فضح استكبارهم عن الحق، وعدم استخدام عقولهم في الانصراف عن سلطان الهوى والانصياع إلى الحجة والبرهان.. لعلنا لا نبعد النجعة إن نحن ذهبنا إلى أن القرآن الكريم قد رأى في ذلك لوناً من ألوان الهدم، والتسبب بضياع أنفسهم ـ ومن وراء ذلك الأسرة والمجتمع ـ دونما إحساس بأثارة من المسؤولية، وما هو من مقتضيات الحق وإنسانية الإنسان!

يستأنس لذلك بما جاء في الآيتين السابقتين للآية التي نسعد باصطحابها من سورة الأنعام، وهما قول الله جل ثناؤه بدءاً من الآية الثانية والعشرين بعد المائة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وفي تقرير هذه الحقيقة المتعلقة بهؤلاء الضالين الذين أهملوا العقل وركبوا متن الهوى والجهالة الجهلاء، وتولوا عن الرسالة الهادية وهم معرضون...

في تقرير هذه الحقيقة على هذه الصورة الحازمة الجازمة تنبيه للمؤمنين في كل زمان وضمن آية ظروف وملابسات أن يكونوا على المنهج السليم، ثقةً بما أكرموا به من رسالة الإسلام، وسيراً مع سنن الله التي لا تتخلّف، وانصياعاً للحق، وتقديراً للحجة القائمة عليه، في استخدام صحيح للعقل، بعيداً عن سلطان الشهوة والهوى، ولكل ما وهب الله الإنسان من وسائل المعرفة والحكم على الأشياء.

والمرحلة التي تنتظر جيل التغيير لا يملؤها بمقومات القوة والاستمرار في نور الرسالة الخاتمة: إلا تلك الاستنارة بالمنهج الرباني الذي أنزل الناس منازلهم، فدلَّ على الطريق، وكشف عما يكون العاقبة لكل من البناة العاملين، والهدامين الموفّقين والمثبطين، كلٌّ بما هو النتيجة العادلة لسلوكه وتعامله مع الحق وسنن الله في هذا الوجود.

* * *

مهام الرسالة.. والبناء
فاعلية الفرد والجماعة..
واللغة المناسبة في المواجهة

كلما استضاءت في نفس المؤمن ذي البصيرة والنفاذ أبعاد المهام التي حمل أعباءها الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو على رأس الأربعين ـ وحوَّل القيم النابعة منها ـ وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ـ إلى وجود عملي تنطق به حركة الإنسان والحياة، ويدل عليه أوضح دلالة، ما شهد التاريخ من منجزات رفيعة المستوى في دنيا الاستقامة والكمال عبر العصور...

كلما استضاء ذلك في تلك النفس المبصرة مصحوباً باستنارة العقل وصفاء القلب استبانت في ظل ذلك ـ أكثر وأكثر ـ لمحات من حكمة الله العليم الحكيم، في اختيار محمد بن عبد الله العربي الهاشمي، للرسالة الخاتمة، التي شاء الله أن تكون للناس كافة على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم ومواقعهم ومعهم الجن، وائتمانه على بناء الإنسان المعدّ لعمارة الأرض كما ينبغي، ذاك الذي يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، في أهلية لملء ميادين الحياة بشتى شعبها ومضامينها وألوانها، ما كان من ذلك في عالم العقيدة والتشريع، أو الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع، على هدي الكلمة الطيبة أول ركن من أركان الإسلام وهي «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

تفرض هذه الكلمات نفسها ـ بعد الذي رأينا فيما سبق من القول من قبسات الهدى فيما تنزل به القرآن في شأن واحدة من ترهات المشركين التي تنشد ـ من اضطراب المعايير في أمر رسالة السماء أين ستجعل؟ ذلكم قول الله جل شأنه في الآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين بعد المائة من سورة «الأنعام»: ﴿وَكَذَٰلِكَ

جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون (١٢٣) وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون (١٢٤)﴾ .

لقد كانت هذه واحدة من صور المواجهة بين الحق والباطل في تلك الحقبة، يهدف الجاحدون من ورائها إلى البعد عن ساحة الاستجابة لرسول الله ﷺ فيما يدعوهم إليه عن طريق هذا المكر، وهو تعليق إيمانهم على حصول تنزُّلٍ عليهم كالتنزل الذي يكون على الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فإن لم يحصل ذلك ـ وهو قطعاً غير حاصل ـ كان هذا الأمر مسوغاً لجحدهم الحق وعدم استجابتهم لكلمة الهداية يدعوهم إليها الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام.

لقد سلكوا هذا المسلك الماكر الذي آذن القرآن بأنه إجرام، وما دروا أنهم بذلك يجنون على أنفسهم في العاجلة والآجلة، وعلى المجتمع الذي ينتمون إليه، وأن استكبارهم عن الإيمان، وتجاوزهم الحدود إلى التدخل في معايير رسالة السماء أين توضع مكرٌ سوف يؤول بهم إلى الوقوع في حمأة الصغار، والذلة الدائمة، والعذاب الشديد والعياذ بالله ..

وذلكم جزاء المجرمين الجناة الذين لا يحسنون التفكير ولا العمل، ويسوؤهم أن يحسن غيرهم العمل، كما يسوؤهم أن يخاطبوا بكلمة الإحسان والخير، بل يقفون وقفة العناد والفتنة في وجه من أراد أن يسلك بهم طريق البناء القويم، الطريق التي تخرجهم من ظلمات الجاهلية والخرافة، إلى نور التوحيد والتفكير السليم، وتستنقذهم مما هم فيه من البلاء الشامل وقد سقطوا في وهدة الوثنية والضياع.

وجاء الرد الحاسم على ذلك المكر البارد الأبله، ليعقل من عنده أهلية التعقل والاستبصار، بقوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون (١٢٤)﴾ .

وما أسوأها عاقبة، وأشده مصيراً! أن يكون جزاء المكر لأولئك المتسربلين سربال الغواية والصد عن سبيل الله صغار عند الله وعذاب شديد.

وبعد، فهكذا يهدينا المعلم القرآني في سورة مكية تتنزل في حقبة مبكرة من عمر الدعوة هي سورة الأنعام إلى أن رسالة البناء الذي هو ترجمان الهداية على صعيد الحركة والواقع، ما بدٌّ من أن يُعَدَّ لها الإعداد الذي يستوعب مقومات العطاء الخيِّر والاستمرار فيه..

فالتبعات الجسام ـ وهي من طبيعة الرسالة الخاتمة في خطابها الشامل للناس أجمعين ـ والتي أوحي بها إلى رسولنا عليه الصلاة والسلام على فترة من الرسل، كان هو عليه الصلاة والسلام كفاءها بعظمة لا تدانى، وسراجاً منيراً للبشرية جمعاء.

وهكذا تشرق صنوف الخير العميم تبعاً لذلك، يقوم بها الفرد المتصل قلبه بالله والمجتمع الأمثل القدوة، والأمة التي أريد لها أن تكون ـ بالإسلام ـ خير أمة أخرجت للناس.

ومن عطاء المعلم القرآني في تلكما الآيتين الكريمتين من سورة الأنعام، التوجيه إلى أنه ـ مع الطريق البانية والمسلك الإيجابي في تنمية فاعلية الفرد والجماعة وقابليتهما للنهوض الحضاري ـ ما بدّ من التصدي باللغة المناسبة لأولئك المناوئين الذين همهم أن يهدموا ويظاهروا على من يمارس إحكام البناء، بل يقفون حجر عثرة ظالمة في وجه دعوة الحق وأهلها، وهي الدعوة التي تهدف إلى تحقيق ما فيه سعادة الفرد والمجتمع والأمة.

وفيما رأينا من الكلمات الهاديات درس عظيم وأي درس، درس توحي به التعرية لموقفهم، وتوعدهم بالعقوبة جزاء بما كانوا يمكرون.

وأية عقوبة هي؟ إنها الذلة الدائمة وعدم الاستقرار في الدنيا والعذاب الشديد يوم الدين.

أيها الرواد على طريق البناء في مختلف صوره وميادينه! جددوا الصلة الواعية الأمينة بمعالم الكتاب العزيز، وبيانها من سنة الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام؛ إنكم إن فعلتم ذلك ـ بإخلاص نية وصدق عزيمة ـ على الطريق الصاعدة في التاريخ: جاءكم نصر الله، والله لا يخلف الميعاد.

أخلاق النبوة.. وتحديات الأهواء

البراهين التي قامت على أن محمد بن عبد الله رسولٌ يوحى إليه، وأن الكلام الذي يبلغه الناس ـ على أنه القرآن ـ هو كلام الله تعالى.. هذه البراهين كانت كثيرة وفيرة اهتدى إليها العقل السليم عند أولئك الذين تجردوا عن سلطان الهوى والتقليد الأعمى للآباء والأجداد؛ فقدروا الحقيقة حق قدرها، ونظروا في أخلاقه عليه الصلاة والسلام قبل البعثة، وبعدها، ونفذوا إلى ساحة الضياء التي تذوقوا معها أن القرآن الكريم كلام معجز يستحيل أن يكون من عند غيرالله.

وقضية الأخلاق التي نشير إليها كانت في الحقيقة فيصلاً بين أولئك الذين خضعوا لتزيين الشياطين وتسويلات النفوس، وبين الذين تأملوا وتدبروا وعملوا على أن يكونوا بمنجاة من السقوط في حمأة التناقض مع أنفسهم، فلا يعتقدون أنه صادق أمين بالأمس، كاذب مفترٍ اليوم.

وبذلك جاءت الآيات تحرك العقول لتقول كلمتها بتجرد وترفّعٍ عن السطحية والتناقض وانصياع للحجة والبرهان.

فالذي يحمل الرسالة «صادق أمين» وهو من ذؤابتهم، وما عرفوه قبل البعثة إلا بمكارم الأخلاق، والكلام الذي يتنزل عليه عجزوا - وهم أرباب البلاغة - أن يأتوا بشيء من مثله مع كونه بلسان عربي مبين.

ها نحن أولاء نقرأ في سورة يونس ـ وهي سورة مكية ـ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾[يونس:٣٧- ٣٩].

ثم جاءت الآيات تشير إلى أن أولئك الذين يجنحون عن الحق مع وضوح الدليل القائم عليه هم المفسدون الذين يجلبون الأذى لأنفسهم ولمجتمعهم وأمتهم؛ لأن مظاهرة الباطل على الحق عنوان الهلاك والدمار.

وما أجدر أولئك الذين يُسعدهم اللّه بحمل الأمانة في ميادين البناء، وتكوين الجيل القادر على القيام بالواجبات والنهوض بالأمة من عثار...

ما أجدرهم بأن يتدبروا تلك الحلقاتِ المضيئةَ في تاريخ الإنسانية كما هي في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، يوم واجهته تلك التحديات، والكفر المنادي مستحكم، والعقول مضروب عليها بالأسداد، والحكمُ للهوى ونزغ شياطين الجن والإنس، ذلكم قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤٠-٤١] .

ثم جاءت الكلمات الهاديات توبخ أولئك الذين يهملون عقولهم وما أعطاهم اللّه من وسائل المعرفة حتى كأنها غير موجودة، فقال تعالى:﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٢-٤٣] .

إنها العبرة التي تشق أبعادها ظلامَ الغفلة واليأس، وتحيي موات القلوب ـ أن لو كانت هنالك قلوب ـ والدرسُ الذي يوحي بعمقٍ: أن التحديات التي يواجهها المستمسكون بالمنهج الرباني في بناء الفرد بناءً تقوى به الجماعة، وصياغة المجتمع القوي المتماسك النظيف.. أن هذه التحديات ما دامت في مواجهة الحق، لا تقوم على دليل ينفع، أو برهان فيه مقنع، ولكنها الأهواء والنزعات الهابطة..

من أجل ذلك يفترض أن تزيد البناةَ المخلصين ثباتاً على الحق، وتنمي في أنفسهم مزيداً من الحوافز التي بدونها لا تكون صناعة التاريخ.

التجرد عن الهوى.. والبناء المحكم وأخلاق النبوة

أشرت غير مرة فيما سبق من القول: إلى أن قضية مكارم الأخلاق التي كانت تطبع سلوك النبي الأمي عليه الصلاة والسلام، وتزدان بها تصرفاته.. كانت ـ على ما يبدو ـ فيصلاً بين أولئك الذين تجردوا عن طاعة الهوى والشيطان، وتفلتوا من ربقة التقليد الأعمى والخوف على الزعامة والمنصب، واحتكموا إلى العقل السليم، وما يشرق به حصاد المعرفة به عليه الصلاة والسلام.. وبين أولئك الذين قعد بهم عن رؤية الحقيقة والإذعان لها إهمال عقولهم، وخضوعهم لسلطان الهوى في الإعراض عما يعرفونه معرفة يقينية به صلوات الله وسلامه عليه قبل البعثة وبعدها، وما كان عليه من سمو في الأخلاق ورجاحة في العقل، وأحقية في رفعة المنزلة في قومه.

ناهيك عما يحسُّونه من إعجاز القرآن؛ فوقعوا في التناقض الهابط، حتى كأنهم يكذبون أنفسهم قبل أن يكيلوا التهم للصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وهو الذي يؤكد صدقه وأمانته ويزيدهما يقيناً فوق يقين، أنه لم يزعم لنفسه أنه صاحب الكلام الذي عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله، وصدق فيهم قوله تعالى:﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾﴾[الإسراء: ٨٨].

من أجل ذلك ـ والله أعلم ـ جاء الحكم على هؤلاء الذين لا يرجون لله وقاراً، ومكروا مكراً كبّاراً، فأهملوا في مواجهة دعوة الحق عقولهم، وما أعطاهم الله من وسائل المعرفة التي تؤدي ـ إذا حسن استخدامها ـ إلى الإفادة من الوقائع، والبصيرة في ربط النتائج بالمقدمات، وسلامة الحكم على واقعة أو شخصٍ ما.. جاء الحكم عليهم بأنهم أناس أشبه بالفاقدين لما وهبهم الله من الضياء على طريق المعرفة؛ لأنهم أهملوه ولم يستخدموه.

ذلكم ما رأينا من قريب فيما دلنا عليه المعلم القرآني في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣)﴾.

وفي سورة «الأعراف» بعد أن ضرب الله مثلاً للذين كذّبوا في عماية عن الحق الواضح البيِّن، بالكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث: قال جل شأنه: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾ [الأعراف:١٧٧-١٧٨].

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾[الاعراف: ١٧٩].

وليس عجباً من العجب أن يذكرنا ذلك مرة أخرى بامرأة عاقلة حصيفة أملت على التاريخ موقفاً على ساحة الحق لا يُنسى، أعني زوج النبي ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ وذلك بما كان منها من استخدام وسائل المعرفة الموهوبة لها من الله ـ بعقلية بناءة ذاتية ـ فخرجت بالنتيجة العظيمة التي استنبطتها من منهج رسول الله الخلقي، ومسلكه في الناس قبل البعثة.. أجل خرجت بالنتيجة التي تقرر أن الله تعالى لن يخزي عبده محمد بن عبدالله وهو على هذا السمو من الأخلاق التي يمتد أثرها إلى المجتمع على أكمل وجه.

وهكذا تعطي خديجة الدرس العظيم الذي حفظه لها تاريخ الرسالة الخاتمة: وهو ما تمليه الضرورة في العمل على تنمية القدرة على استخدام وسائل المعرفة، بعد الاتجاه لاستخدامها ـ وهي من نعم الله على الإنسان ـ والرغبة في التجرد والإنصاف عند الحكم على الأشخاص والأعمال والوقائع على نهج من الاستقراء والاستنتاج الأمينين.

وهل يخفى على ذي بصيرة ـ وصلة النسب قائمة بين ماضي الأمة وحاضرها، بل ومستقبلها ـ ما لليقين بصدق الرسالة، ولسلامة البنية الثقافية لدى الفرد والجماعة، من أثر في تحمل الأعباء، والقدرة على الأخذ بأسباب البناء والنماء؟!

ألا لا تثريب علينا في التنبيه على أن كل أولئك جدير أن يحمل على استنطاق الوقائع التي كان من أبسط دلالاتها صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن القرآن كلام الله عز وجل؛ فذلك مما يشد العضد، ويجدد العزيمة بعون الله.

على هدي هذه المقولة التي لا ريب في انعكاساتها على يقظة الأمة وتطلعاتها المستقبلية لعل من الخير أن نعيد إلى الأذهان ـ مع الذي رأينا من خديجة رضي الله عنها ـ موقفاً آخر من مواقف التجرد والنصفة في استخدام العقل وسلامة الاستقراء، هو موقف هرقل عظيم الروم قبل أن يفرض عليه رجال الدين عنده ـ وحالهم هي الحال ـ رأيهم بقوة الشغب والإثارة.. ولقد كان ذلك يوم اجتمع إليه أبو سفيان ﷺ قبل أن يسلم، ومن معه بإيلياء... وحصل ما حصل... يمكن أن نستمع إليه أو إلى بعضه – على الأقل – فيما يأتي من القول إن شاء الله.

وهو الحوار الذي أخذت فيه أخلاق النبي ﷺ ـ بإنصاف أبي سفيان ـ مكانها في إقناع من أراد مقنعاً: أن محمداً ﷺ صادق في دعوى أنه رسول الله ﷺ يوحى إليه بالقرآن الذي يتنزل بلسان عربي مبين.

وإذا كانت الرسالة الخاتمة ـ بما فيها من مضمونات ـ تتجاوز الترف الثقافي، إلى وجوب التطبيق وبناء الحياة على هديها ـ: فليكن في مناهج الإعداد العلمي والثقافي حيث العناية بالمعرفة والسلوك: ما يُحكم الارتباط بقيم هذه الرسالة علماً وعملاً وإخلاصاً في طاعة الله بالائتمار بأوامرها، واجتناب نواهيها، دون غفلة عن السنن الإلهية، ولا تجاهل للواقع .

ومن يتقِ الله في العمل على تحقيق ذلك ـ بما هو مستطاع ـ: يظفره ـ إلى جانب خير الدنيا ـ بما أعدَّ الله في الآخرة لأحبائه المتقين.

الفهم الدقيق والبناء..
والشطر الآخر من موقف خديجة
«١»

مع المعلم القرآني في فواتح سورة القلم وقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ ومع فقه السيدة عائشة رضي الله عنها لأبعاد هذا الخلق العظيم وأنه التطبيق العملي الأمين لأمر القرآن ونهيه وسائر توجيهاته، حتى قالت حين سئلت عن خلق رسول الله عليه الصلاة والسلام: «كان خُلُقه القرآن».. وما صنع المنهج الخلقي لصاحب الرسالة من أثر في البناء الذي كان ينشده منذ اؤتمن على وحي السماء وبدأ يرسم للإنسانية معالم تاريخ جديد، مبرءٍ من العدوان على الفطرة وإنسانية الإنسان وكرامة الإنسان!

مع تلكم القبسات من الضياء كانت لنا رحلة عَجلى انتهت بنا إلى واحدٍ من مواقف خديجة بنت خويلد زوجه ﷺ رضي الله عنها؛ وهو ما كان منها يوم رجع رسول الله من غار حراء يرجُف فؤاده وقد خشي على نفسه بعد أن جاءه الحق هناك وغطَّه الملك ثلاثاً يبلغ منه الجهد في كل واحدة منها، وينزل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[العلق:١-٥].

ولقد تمثل هذا الموقف المتميز أول ما تمثَّل، بما كان من رجاحة عقلها، وقدرتها على التبصر في الأمور، حين قابلت زوجها الكريم وهو يقول: «زملوني زملوني»، ويقص عليها الخبر المروِّع بكلمات تحمل صيغة الجزم واليقين وتأخذ أبعادها في تاريخ الإسلام: «كلا والله لن يخزيك الله أبداً - أو كلا ما يخزيك الله أبداً - إنك لتصل الرحم، وتصدقُ الحديث، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

إن الحاجة الملحة إلى تبين الخصائص التي اتسم بها منهج البناء على صعيدي الفرد والمجتمع في الماضي، والذي كان من ثمراته «حضارة الإسلام»: يحملنا على إعطاء هذا الموقف من خديجة رضي الله عنها حجمه اللائق به على ساحة الإسهام يومذاك في إنجاز تلكم المهمة الكبرى، مهمة البناء الإسلامي العظيم والعودة بالناس ـ بدءاً من العشيرة والقوم في جزيرة العرب ـ إلى حيث الخروجُ من الظلمات إلى النور، توحيداً بعد شرك وإهمال للعقل، وعلماً بعد جهالة جهلاء، وقوة بعد ضعفٍ وشتات، وتنميةً للطاقات المبعثرة والضائعة هنا وهناك، كيما تكون في خدمة الفرد والجماعة، وصياغة مجتمع جديد يحمل مقومات العطاء الخيِّر والاستمرار في نموٍّ وإحكام، وهو ما كان على أكمل صورة والحمد لله.

والحق أن خديجة رضي الله عنها لم تقف عند هذا الحدّ من تأنيس رسول الله، وإشعارها إياه بما استنتجته على وجه اليقين وجزمت به مقسمة عليه، بأن الله معه، ولن يخزيه، ما دامت تطبع سلوكه تلكم الصفات الخيِّرة في نفسه وفي تعامله مع الآخرين؛ بل أرادت أن تفيد لهذا الحادث الجلل الذي أحسَّت أنه حادث جدير بالكثير من العناية والمتابعة الجادَّة: من قبل أهل المعرفة بالديانات والتاريخ.

ومن أجل ذلك انطلقت مع الرسول الكريم ﷺ إلى ورقة بن نوفل أعلم أهل زمانه، وأعقل من تعرف لصوقاً بمثل هذا الأمر، دون تلكؤ أو تأخير.

وكان ما سوف نشير إليه في خطوة قادمة إن شاءالله، وضربت المرأة الزوجة المباركة خديجة المثل المشرق المذكور في التاريخ؛ فلا تذكر الرحلة المثقلة بالأعباء التي قادها رسول الله وهو يرتاد للإنسانية دروب الفلاح والنجاح: إلا ذكرت هذه المرأة العظيمة، لما أن مواقفها كانت ذات قيمة رفيعة في تلكم الرحلة وظروفها وما كان يكتنفها، تأييداً وتثبيتاً وعوناً. وكان عظيماً جداً أن تكون رضي الله عنها: أول امرأة آمنت وانشرح صدرها للإسلام، وظلام الجاهلية والأعراف الموروثة تطبق من هنا وهناك.

العقل والبناء.. والشطر الآخر من موقف خديجة

الوقت الثمين.. والآثار

«٢»

الخطوة الثابتة الأولى على درب البناء والعمل على تنبيه العقول إلى ما فيه دفع الأذى عن المجتمع وتوظيفُ طاقاته في مسالك النماء والخير.. هذه الخطوة تأخذ أهميتها من أهمية الغايات الكبار التي يهدف إلى تحقيقها البناة المؤمنون، والمصاعبِ التي تكتنف طريقهم، وهم يواجهون رواسب الباطل والمبطلين ناهيك عن الغفلة والغافلين.

وذلك ما ميَّز موقف خديجة العاقلة الحصيفة رضي الله عنها، يوم استعلت على رواسب الجاهلية، ونفذت إلى صلب الحقيقة، وكانت نعم العونَ لرسول الله ﷺ وقد آذنه الوحي بالأمر العظيم الذي لم يعهده من قبل... حتى بدت ـ وهي تتصرَّف بالحكمة والحصافة ـ كأن كلماتها ـ في أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وأنها عنوان الفلاح المؤكد، والعطاء الإلهي الذي لا ريب فيه ـ: تسير في ظل قوله تعالى ـ وقد حمي الوحي واتضحت المعالم ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وقد نبهتُ في إشارة سبقت على أن موقف خديجة لم ينته عند قولها: «أبشر فوالله لن يخزيك الله أبداً»، واستشهادها على ذلك بذكر طائفة من مكارم أخلاقه عليه الصلاة والسلام، ولكنها ـ بثاقب رأيها وراجح عقلها ـ بعد توفيق الله ـ أرادت أن تستكمل الحكم من أطرافه، فتجمع إلى ما كان عندها من اليقين فيما استنتجت، ما يقوله أهل المعرفة بالأديان والتاريخ..

تقول عائشة رضي الله عنها ـ فيما روى البخاري ومسلم وغيرهما ـ: «فانطلقت به ـ تعني الرسول الكريم ـ خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزى ـ ابنَ عم خديجة ـ وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانيَّ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك» ـ وفي «دلائل النبوة» للبيهقي «فأتت ورقة ابن عمها فأخبرته بالذي رأى» ـ فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ـ وفي بعض الروايات جذع ـ ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَمخرجيَّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئت به إلا عودي ـ وفي رواية وأوذي ـ وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي».

والتعبير بـ «يا ليتني فيها جذعاً ـ بالنصب ـ أو جذعٌ ـ بالرفع ـ: يدل على أن ورقة تمنى أن يكون شاباً جَلْداً، ليكون أقدر على نُصرة النبي ﷺ في دعوته، ودلالة ذلك على يقينه بصدق النبي ﷺ وأنه رسول من عند الله، أولاً، واستنارة بصيرته مقدمة لانشراح صدره للإسلام لو ظلَّ حياً، ثانياً: لا تخفى على ذي بصيرة.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنه على رواية النصب (جذعاً) يكون التقدير: يا ليتني أكون فيها جذعاً كما في قوله تعالى: ﴿انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ﴾[النساء:١٧١] أي يكون انتهاؤكم خيراً لكم. ورواية الرفع (جذع) لا تحتاج إلى تأويل.

أرأيت إلى هذا النبأ العظيم الذي طرح ثقله كله على طريق رسول الله ﷺ، كما فهم ذلك ورقة بسعة علمه ودقة معرفته؟! فهنالك رسالة، وهنالك مشاق وتحديات تنتهي بإخراجه صلوات الله وسلامه عليه من بلده ومسقط رأسه مكة المكرمة.

وإذن فما حصل من الملك عليه السلام هو بداية الطريق. وغاية السلامة في الفهم ما صدر عن خديجة من بشارة النبي ﷺ أن الله لن يخزيه أبداً ما دام آخذاً

بنفسه بذلك النهج القويم من مكارم الأخلاق، وما أضافت إلى ذلك من الذهاب مع النبي ﷺ إلى ورقة العالم بالأديان ورسالات السماء وكان من أمر هذا اللقاء ما كان.

وبعد فإن الوقت الذي تقضّى بدءاً من كلمات خديجة الأولى وانتهاءً بكلمات ورقة ابن نوفل، وقت جد ثمين في حياة البشرية وتاريخ الإنسان ـ على وجه العموم ـ وتاريخ أمتنا على وجه الخصوص.

وإذا كان الوقت قيمة حضارية في ميزان العقيدة والعلم، ونعمة يقدرها حق قدرها العقلاء النابهون وهو ما فعلته خديجة: فهذا الوقت المومى إليه جدير أن يذكر لأم المؤمنين خديجة التي كانت موفقة التوفيق كله في صنيعها السريع التلبيةِ لما يستدعيه تحرير الخطوة الأولى على طريق تعز على الوصف في حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهو في الأربعين من عمره يومذاك.

وكم نحسن صنعاً ونحن على أبواب صحوة جديدة في أعقاب تجارب مريرة لأفكار قادها مرضى القلوب أن نضع وقائع السيرة موضعها على سلم الأولويات ثم الاهتمامات، بعقول نيرة وقلوب متصلة بالله تبارك وتعالى!! إننا إن فعلنا ذلك كان الله معنا، وأشرقت على خُطانا أنوار التأسي بالمصطفى عليه الصلاة والسلام.

* * *

أم المؤمنين خديجة..
ورسالة المرأة في التغيير المنشود
«٣»

الرصد العلمي الواعي لمسيرة الإنسان الفكرية وانعكاساتها الحضارية على السلوك في عملية البناء الكبرى للإنسان القادر على إدارة حركة الحياة في ضوء منهج سليم متوازنٍ بعيد كل البعد عن العشوائية وردود الأفعال، مصحوبٍ بالتوجيه الحيِّ إلى الانتفاع دائماً بحركة التاريخ إيجاباً وسلباً.. هذا الرصد المنهجي يقتضي متابعة أمينة لما تركه إسهام الرجل والمرأة جميعاً في إحكام البنية الحضارية في تاريخ الإسلام، ومواجهة ما يطرأ من تحديات..

وهذا الرصد الذي يدعو إليه أهل الصلاح والإصلاح الذين نوَّر الله قلوبهم وعقولهم، يعطي لكل ذي حق حقه في ظل وضع الأمور مواضعها، ويثمر الإفادة التي يراد لها أن توظف على ساحة المتابعة لما يجدُّ على الساحة الحضارية، وتزويد البنية الصالحة بما يضمن القدرة على الاستمرار.

والأمر في هذه المقولة عندنا ـ نحن المسلمين ـ وثيق الارتباط بمفهومات الرسالة الخاتمة التي سوَّت بين الرجل والمرأة في خطاب التكليف، ولم تفرق بينهما إلا في تلكم الأحكام المرتبطة بطبيعة التكوين الإلهي للإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ والخصائص التي تميَّز بها كلٌّ عن الآخر، بحيث إذا قام كل بمسؤوليته وفق الأحكام الخاصة به حصل التكامل، وعاد ذلك بالخير على الجماعة والمجتمع والأمة.

أقول هذا، وقد شهدنا من قبلُ ما كان من عطاء المعلم القرآني في قوله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ في التذكير بواقعة عملية عظيمة في تاريخنا كان للمرأة الإسهام الخيِّر القويُّ فيها، تلك هي وقفة

خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها الوقفة الواعية الصامدة مع الرسول ﷺ في حقبة حرجة، كانت أول خطوة على طريق الإيحاء إليه بالرسالة من عند الله عز وجل.

ذلك بأن ما صدر عن هذه المرأة زوجه عليه الصلاة والسلام يدل ـ فيما يدل ـ على مدى إدراكها لأبعاد الشخصية الفاذَّة والمنهج الخلقي الذي كان الرسول الكريم يأخذ نفسه به في ذلك المجتمع الجاهلي، وما كان لذلك من آثار على صعيد العلاقة بينه وبين ربه من جهة، وبينه وبين أبناء المجتمع من جهة أخرى.

والرصد الذي ألمحنا إليه في صدر هذا الحديث يقتضينا أن نولي مواقف خديجة رضي الله عنها وأضرابها، وبخاصة موقفها مع الخطوة الأولى التي كان يضعها سيد بيتها رسول الله على طريق البناء الشامل بديلاً لما كان عليه الوضع الجاهلي المتخلف.. أن نوليها من الاهتمام ما يليق بالحجم الذي أخذه صنيعها على أرض تلك الحقبة من التاريخ، حيث التمخُّض والتطلع إلى جديد يبدل الناس ـ بما هم عليه من الجاهلية ـ نوراً يزيل الجهالة والظلام.

ذلك بأن هذه المواقف ـ على وجه العموم ـ تأخذ الوجهة التي تأخذها حركة الحياة التي آذنت بها رسالة التغيير إلى ما هو الأفضل والأقوم للفرد والجماعة في عمارة الأرض، والنجاة يوم الحساب، وتسهم في دفع القافلة الخيِّرة إلى الأمام، في ظروف كانت الفئة القليلة المؤمنة فيها أشبه بالجزيرة المضيئة في بحار من الظلمات.

الجاهليون ـ عموماً ـ وسدنة الشرك ـ بخاصة ـ في القرية العظيمة مكة يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أنفسهم وأبناءهم، وما عهدوه منذ النشأة إلا الصادق الأمين المستقيم ثاقب النظر راجح العقل؛ حتى إذا عُهد إليه برسالة السماء، وتنزل الوحي من عند الله العليم الخبير، بدا سوء الظن من قبلهم، والأحكام الجائرة التي هي على النقيض الفاضح من رأيهم فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل البعثة.

المرأة السيدة خديجة بنت خويلد تستبشر ـ بثاقب رأيها وإنصافها ـ بأن الله لن يخزيه أبداً؛ لأن سلوكه الفذَّ يتسم بتلك الأخلاق الفاضلة التي تأخذ مزيداً من الأهمية ضمن الظروف المحيطة، والتي كشف عنها قول الله تبارك وتعالى فيما تنزل بعد من القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

والرجال الأشداء الذين استبدَّ بهم الهوى: يعرضون عن الحجج الواضحات، والبراهين التي كانت كالشمس في رابعة النهار، ويتهمونه بالسحر والكهانة والشعر وما إلى ذلك؛ الأمر الذي أبان عنه القرآن في كثير من آيه؛ كالذي نقرأ في سورة «الطور» ـ على سبيل المثال ـ قول الله عز وجل خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾[الطور: ٢٩].

كما نقرأ في سورة «الحاقة»: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧﴾[الحاقة: ٣٨-٤٧].

وبدلاً من التحاكم إلى العقل السليم، وسموِّ الكلام المنزل وإعجازه ـ وهو بلسانهم وعلى معهوداتهم في الخطاب ـ وأن من يدعي أن هذا الكلام من الوحي صادق أمين ما عرفوا عنه طوال حياته إلا ذلك!! بدلاً من هذا؛ تجدهم غارقين في حمأة ذلك الافتراء، واللجوء إلى تمحلات رأينا منها في سورة «الأنعام» قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۝١٢٤﴾ الذي تلاه قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ۝١٢٤﴾.

أين مواقف الضلالة والمكر من مواقف البصيرة ورجاحة العقل؟ موقف المرأة العاقلة النابهة خديجة رضي الله عنها: حلقة من حلقات الإسهام في البناء المشرق بنور الهداية على مدى التاريخ في الإسلام، وموقف الضُّلال من أهل الشرك مرحلة من مراحل الهدم والتخذيل عن الحق وأهله، ومظاهرة الباطل في شتى صوره.

وإن تصنيف القيم التي أغنت حضارتنا عبر القرون يقتضي الأجيال أن تعي مواقع تلك القيم، ومنها موقع المرأة المؤمنة الحصيفة خديجة وأضرابها، كيما يكون سلوك المرأة المسلمة المراد لها الإسهام في التغيير ذا نسب صحيح إلى تلكم القيم التي اقترنت بمواقفها ومواقفهن والله الهادي إلى سواء السبيل.



وإن تركوه هلك وهلكوا

«١»

من المعالم القرآنية في علاقة الأمة بنبيها عليه الصلاة والسلام، أن الله جعل طاعة رسوله من طاعته:﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠]. وفي أكثر من موطن جاء الأمر بطاعة رسول الله مقترناً بالأمر بطاعة الله ، وجاء التصريح بترتيب الضلال المبين على معصية الله ورسوله جميعاً قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[الأحزاب: ٣٦] فمن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ، وملاك ذلك كله أن تكون سنة النبي ﷺ - وهي بيان القرآن ـ المنارة الهاديةَ التي تحمل صفة الديمومة والاستمرار حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وحقاً لقد هدى ﷺ الناس بسنته في ظلّ معالم القرآن إلى الصراط المستقيم. كان ذلك في دينهم الذي هو عصمة أمرهم، وفي دنياهم التي فيها معاشهم وقوام حياتهم، وفي آخرتهم التي إليها معادهم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وفي منهجه ﷺ لبناء الإنسان والحياة بجميع جوانبها كما تقتضيه رسالة الإسلام، تجد لكل مستلزمات البناء وأحكامه وتنمية الطاقات التي تحميه ألواناً من الهداية، تتناسب مع الجانب الذي تمتد إليه يد البناء كائناً ما كان الميدان المراد، في تنسيق يمنع الخلل ويضمن ـ بعون الله ـ الصلاح والإصلاح.

وفي واحدة من عيون هدايته ﷺ نجد بياناً عملياً تطبيقياً لقوله تعالى:﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] إذ الدعوة إلى الخير بمفهومه الشامل البنَّاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إسهام في البناء وحراسة فاعلة من داخل الفرد والجماعة لهذا البناء.

وفي معرض التنبيه على مسؤولية الفرد والجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحيلولة دون أن تكون حرية فرد أو مجموعة من الناس باب شر يتسرب منه الأذى إلى المجموع: يقول رسول الله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماءَ مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ مَنْ فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» أخرجه البخاري وغيره من رواية النعمان بن بشير رضي الله عنه واللفظ للبخاري.

هذا مثل تتكرر صوره في حياة الأمة على كثير من الأصعدة، وكم كان مفهوم الحرية الخاطىء عند البعض عقبةً على طريقها، وهي تتطلع إلى اللحاق بالركب وبناء قوتها التي ترهب عدو الله وعدوها في شتى الميادين، وتحقيق وجودها الذاتي الأصيل.

لقد كانت حجة من أرادوا نقب السفينة ـ في هذا المثل النبوي ـ أن المكان مكانهم يصنعون فيه ما يشاؤون، ولكن رسول الله أوضح ببلاغة فاذة أن مصلحة الجموع هي الحاكمة، وفي ذلك أيضاً حفاظ على مصلحة الفرد؛ لذا دعا الجماعة إلى أن تنهى عن المنكر وتزيله، بأن تأخذ على يد من أراد النقب؛ لأنها إن أخذت على يده نجا هو ونجت الجماعة، وإن تركوه ينقر السفينة هلك وهلكوا.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظ الفرد ويحفظ الجماعة ونظامها، ويصون عن الفوضى، الأمر الذي يضمن استمرارية البناء والنماء على كل صعيد.

واليوم والأمة تمر بالعاتي من الوقائع والمفاجآت وتخوض معارك الحق مع الباطل، ومعارك تربية الأجيال وإعدادها، وتتحرك على صعيد التغيير إلى ما هو الأفضل، وما يجب من العلم والتخطيط من أجل التنمية والبناء.. تبدو الحاجة ملحة أكثر وأكثر أن يدقَّق في الزوايا والخبايا، فيؤخذ على كل يد تعمل على نقر السفينة، فتهدم ـ لا سمح الله ـ أو تعوق استئناف المسيرة الخيِّرة. والله المسؤول أن يهدينا بمعالم كتابه ويبصرنا الطريق كما أراد نبينا عليه الصلاة والسلام وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وهذه رواية أخرى للبخاري تزيد الأمر وضوحاً ولفظها: «مثل المُدهن في حدود الله والواقع فيها: مثل قوم استهموا سفينةً، فصار بعضهم في أسفلها وبعضهم في أعلاها؛ فكان الذين في أسفلها يمرُّون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأساً، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي ولابدَّ لي من الماء؛ فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجَّوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم».

* * *

فهم الحرية الخاطئ ـ وحراسة البناء

الفرد والجماعة

«٢»

من المعالم القرآنية في علاقة أمتنا المحمدية بنبيها الكريم عليه الصلاة والسلام أن اللّه جعل طاعة رسوله من طاعته: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠] والأمر بطاعة رسول اللّه مقترناً بالأمر بطاعة اللّه جاء في أكثر من موطن في القرآن الكريم: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وملاك ذلك كله أن رسول اللّه ﷺ ابتعثه اللّه ليكون منار هداية الناس على مدى الأزمان والعصور حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها، ذلكم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وحقاً لقد هدى الناس لسنته إلى الصراط المستقيم في دينهم الذي هو عصمة الأمر كله، وفي دنياهم التي فيها معاشهم وأموالهم التي جعلها اللّه قياماً لهم، وفي آخرتهم التي إليها معادهم يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

وهكذا نجد لكل مستلزمات الحياة ألواناً من الهداية في شأنها، تتناسب مع ما هو للإنسان فيه حاجة، بناءً وتقويماً، وإصلاحاً في كل ميدان.

وفي واحدة من عيون هدايته ﷺ إلى ما فيه صلاح الفرد والجماعة في ظل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ جاء في معرض حراسة المجتمع من قبل الجماعة، والحيلولة دون أن تكون حرية

فرد أو جماعة من الناس باب شر يتسرب منه الأذى إلى المجموع، يقول رسول الله ﷺ ـ كما مر بنا من قبل ـ: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها... » الحديث.

أرأيت، يا أيها المؤمن المصدق إلى سمو هذا الهدي النبوي الذي يتخطى حدود الزمان والمكان والمناسبات، حتى كأنه اليوم لزماننا هذا وما نجد فيه، وما نعاني منه في فهم الحرية خصوصاً حرية الفكر حيث نابتات السوء التي تريد أن تستبدل عقولها ـ ولا ندري أي عقل منها وفي أي زمان أو مكان ـ بوحي السماء، مع أن الوحي هو الذي كرم العقل وأعطاه مكانه الطبيعي بحيث لا يزاحم الوحي، فضلاً عن أن يقدَّم عليه.

لقد كانت حجة من أرادوا نقب السفينة أن المكان مكانهم يصنعون فيه ما يشاؤون. ولكن رسول الله ﷺ أوضح أن مصلحة المجموع وصيانة الحق، الوقوف عند ضوابطه هي التي يجب أن تكون الحاكمة، ودعا الجماعة إلى أن تأخذ على يد من أراد نقب السفينة؛ لأنها إن أخذت على يده، نجا هو ونجت الجماعة، وإن تركوه هلك وهلكوا.

إن في هذا التحديد الرادع الحكيم، ـ مع الردع والنهي عن المنكر المنذر بالخطر ـ حفظاً لهذا الذي استجره الطغيان والغفلة إلى ارتكاب الخطأ، كما أنَّ فيه حفظاً للمجتمع ببناه كافة، ودرساً في البناء على ساحات الفرد والجماعة والأمة لا تبلى جدته على الأيام!!

واليوم والأمة تمر بالعاتي من الوقائع والمفاجآت والقاسي من صروف الدهر عليها أن تأخذ على يد من ينقر السفينة فينذر عمله بخطر الغرق، وإلا كان الهلاك له وللجميع.

وما أحسب أن الأمر بحاجة إلى المزيد من الإيضاح، والحمد لله الذي خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ وجعل طاعته من طاعته.

إن البناء ضرورة، وإن دفع الأذى عن البنيان لكيلا ينقض أو يهدم ضرورة مثلها وصلى الله على من ائتمنه الله على بيان كتابه، فأدى أمانة البيان خير أداء، وكان من قبل عنه، فمن الله قبل، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته أجمعين، ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين، وسلّم تسليماً كثيراً. والحمد لله رب العالمين.



إنسان العقيدة... وتنمية الطاقات

جاء في «جامع البيان» للإمام الطبري أن هذه الآية نزلت في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين عرفنا منهم سعد بن أبي وقاص وبلالاً وعبد الله بن مسعود، قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك.

فالله تعالى يرد على هؤلاء المشركين تحكيمهم لمقاييس الجاهلية في تصنيف الناس، وطلبَهم من النبي ﷺ طردَ هؤلاء الكرام لكيلا يجترىء عليهم المستضعفون... يرد على هؤلاء الجاهليين فيقول للنبي عليه الصلاة والسلام: لا تطرد يا محمد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك الذين يعبدون ربهم دوماً في الصباح وفي المساء، يلتمسون بذلك القربَ من الله وأن يكونوا من أهل رضاه... وتختم الآية بما يشعر بأن طردهم ظلم أيٌّ ظلم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[الأنعام:٥٢].

وما من ريب في أن هذا الوعيد: إنما هو لبيان الأحكام ـ وحاشا النبيَّ ﷺ من وقوع ذلك منه ـ قال الإمام القرطبي: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله.

هكذا تأخذ الهداية القرآنية مكانها في تقدير إنسانية الإنسان ـ عند التقويم ـ ومقدار قربه من مولاه وحسن عطائه في المجتمع.. تأخذ مكانها الملائم الذي صان القضية عن مقاييس الجاهلية وآذن التاريخ الإسلامي بأنه إذا ذكر الرجال فحيَّهلا بهؤلاء الذين علَّق زعماء قريش حضورهم مجلسه عليه الصلاة والسلام على طردهم رحمهم الله ورضي عنهم.

وهذه الرحلة العجلى مع هذه الآية الكريمة تصلنا بقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ففي الآية أمر للنبي ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء المخلصين الذين يعملون لله، وهذا ما يضمن الخير لأنفسهم وللمجتمع، لأن المخلص الذي يريد بعمله وجه الله، لا سلطان للأهواء والنزوات عليه، كما أنَّ العقبات ـ ما دام همُّه مرضاة الله ـ لا تحول دونه ودون الاستمرار والمتابعة مهما تفاقمت الصوارف والمعوقات.

ثم جاء النهي عن الانصراف عن هؤلاء البررة ابتغاء زينة الحياة الدنيا؛ فَصَبْرُ النفس معهم ـ وهم على هذه الشاكلة من ذكر الله في الغداة والعشي لا يبغون عن مرضاته سبحانه حولاً ـ أمر عظيم من أمور الآخرة، أين منه ما يحصل من زينة العاجلة ومتاعها الزائل.

أرأيت إلى هذا التكريم لإنسانية الإنسان، وإلى ما تشرق به الآية من إعلاء شأن التقوى وصدق الوجهة في العمل...

إنها الحقيقة التي تعمل عملها في الإفادة من الطاقات والإمكانات جميعها، بعيداً عن النظر إلى فوارق الجاهلية التي تضعف وتشتت، وتحرم الأمة من كثير من الخصائص والقدرات!!

وفي خطوة أخرى على ساحة التأصيل لهذه الحقيقة، نقع في ختام الآية على نهي النبي ﷺ ـ وهو في موقع الهداية والقيادة ـ عن طاعة أولئك الغافلين الذين همهم أنفسهم بما يشغلها من تطلعات هابطة، واستعلاء على الآخرين لا يغني من الحق فتيلاً.

وجميل أن نذكر أن هذا كله قد جاء بعد ذكر أولئك النفر من المؤمنين بصفة أنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.

وليس من مكرور القول تقرير أن فيما أُمر به النبي ﷺ وفيما نهي عنه في الآية الكريمة: تأصيلاً لمقياس الكفاءة القائمة على الإيمان ومقتضياته؛ فأصحاب الكفايات والمهارات من المؤمنين الصادقين: هم الذين يستطيعون أن ينهضوا بالعبء ويصلحون لأن يؤتمنوا على التخطيط والتنفيذ.

أما بعد: فإن هذا المعلم القرآني مضموماً إليه ما رأينا في سورة الأنعام وما يقع عليه المؤمن في سورة «عبس» حيث العتاب على الإعراض عن ابن أم مكتوم وإن كان بغية شد أولئك الزعماء إلى الإسلام... وما جاء في سورة الحجرات من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] جدير أن يكون نصب الأعين، عندما يراد مسح الكفايات في الأمة في أي مجال من المجالات، لتكون العبرة ـ بعد العلم والمهارة ـ لسلامة النوعية والكيف، لا للكم والعناوين.

وتبدو الحاجة إلى ذلك أكثر وأكثر في مراحل استئناف البناء وتنمية القدرة الذاتية، لما أن العلم جعل لهذه القضايا شعباً وفروعاً يُداخلها نوع من التعقيد في كثير من الأحيان.

فالذين يسهرون على العمل ويناط بهم ترجمة المكتوب على الورق إلى صورة عملية جادة مرحلة بعد مرحلة: إذا كانوا من النوعية التي أصَّل لها المعلم القرآني، فذلكم هو الخير والفأل الحسن، والعكس بالعكس.

ولما كان بعض الكفرة ـ وعلى رأسهم يومذاك عيينة بن حصن وأصحابه ـ قد شرطوا لجلوسهم مع النبي ﷺ ـ كما أسلفنا ـ أن يخلو مجلسه من أولئك المستضعفين الذين لا يصلحون لأن يشركوهم في المجلس كما يرون، وحسب سلم القيم عندهم: أمر الرسول ﷺ في آية تالية أن يقطع عليهم الطريق لكيلا يعودوا إلى مثل هذا المطلب الذي يتنافى ومعايير الإسلام؛ فالحق الذي يدعوهم إليه خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه حق رباني واضح لا يعتريه لبس ولا غموض، وقد استنفد جهده في الدعوة إليه بحكمة مؤيدة بوحي السماء؛ فمن شاء فليؤمن بهذه الدعوة ومن شاء فليكفر، ولكلٍ عاقبته في الآخرة، والجزاء من جنس العمل.

والآيات المعنيَّة هي قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩-٣١].

ألا إن هداية القرآن في معالمه الخيِّرة تأخذ بأيدينا إلى ما به تسعد الأمة في دنياها وآخرتها؛ ففي الدنيا بناء وإعمار واستثمار لنعم الله الظاهرة والباطنة وتنمية لها والإفادة مما سخر الله في الكون للإنسان؛ الأمر الذي يعود على الفرد والجماعة بالقوة التي تحمي الحق وأهله في مواجهة الباطل وسدنته، ويضع هذه الأمة موضع القيادة والريادة من جديد.

أما في الآخرة: فلا تسل عما يكون ـ بفضل الله ورحمته ـ من الفوز بجنات تجري من تحتها الأنهار في نعيم لا ينقطع ولا يزول، ورضوان من الله أكبر لما أن العمل في الدنيا نبت في أرض الإيمان وصدق العبودية لله عز وجل، وهو سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

حسُّ المسؤولية.. والبناء

غير خافٍ على ذي بصيرة أن الإسلام بقدر ما أعطى الإنسان من قيمة وتكريم: حمّله من طريق خطاب التكليف ـ وهو مؤهَّل بحكمة الله لذلك ـ عهدة الإيمان والعمل الصالح وتحكيم التقوى في السلوك، ونمَّى في أعماقه وجوب الاندفاع الذاتي إلى تحقيق ما كلِّف به، والإحساس بالمسؤولية على أكمل وجه، مهما كان ثمن ذلك من العطاء.

وعلى المنهج المسلوك في الإيجاز الذي لا مندوحة عنه هنا: نسعد لتأكيد هذه المسلَّمة، باصطحاب واحد من معالم الكتاب العزيز، نلمسه فيما جاء في سورة الشعراء خطاباً للنبي ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين الأقرب منهم فالأقرب، بتخويفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بما أنزل الله عليهم.

ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢٢٠].

قال علماؤنا: وإنما أمر النبي ﷺ ببدء النذارة للأقرب فالأقرب من عشيرته وذويه أولاً، لئلا يظنَّ أحد به المحاباة وتخصيصَهم بشيء من اللطف دون غيرهم؛ فإذا حزم الأمر مع الأقربين: كان قوله أنفع، وكلامه أنجع.. وهذا في الواقع من الفوارق بين النبوة والزعامات الأرضية.

وأنت واجد أنه ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ قد أُمر ـ بجانب ذلك ـ بخفض الجناح ولين الجانب لأتباعه المؤمنين أيّاً كان شأنهم في المجتمع، وأن يتبرأ ممن عصا ولو كان من أقرب الأقربين، لأن الدعوة دعوة الله وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ مؤتمن على أن يبلغ هذه الدعوة عن الله؛ فالمؤمنون قرباء مهما بعدت أنسابهم، والمعرضون بعداء مهما قربت تلك الأنساب.

والمسؤولية فردية ـ في الأصل ـ لا تتأثر سلباً أو إيجاباً بتلك القرابة. والاستجابةُ للدعوة، والعملُ بمقتضاها: هما المقياس الحقيقي للصلاح أو الفساد.

وإنا إذ نصطحب هذا المعلّم المبارك، نتجه صوب طريقة الامتثال النبوي لهذا الأمر الإلهي، وإخراجه إلى حيز التنفيذ من قِبَله عليه الصلاة والسلام، ذاكرين أن ما أنذرهم عقاب الله على عدم الإيمان، هو التوحيد الخالص لله عزَّ وجل، وترك الشرك مع إفراده ـ سبحانه ـ بالعبودية؛ لأن الآية الكريمة سُبقت بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢٢٠].

لقد صدع رسول الله ﷺ بما أمره به ربه من إنذار عشيرته الأقربين، وكان خير أُسوة في العمل بأمر الله على أدق وجه وأكمله. واستمع التاريخ في الأيام الأولى للدعوة في مكة المكرمة رجلَ الإنسانية الموحى إليه، يخاطب أولئك الأقربين من عشيرته منذراً إياهم بين يدي عذاب شديد، وراح يقرر ـ بذلك ـ مبدأ المسؤولية الفردية، ويبني بيده الصناع وحكمته الباهرة الشعور بالتبعة، بعيداً عن الملابسات الاجتماعية، والقرابة النسبية ـ وغيرها بالأولى ـ وهذا ما يشدنا إلى ما جاء بعد ذلك ـ كما ذكرت آنفاً ـ من قوله تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٦].

هكذا.. بعيداً عن القرابة ـ حتى القريبة منها ـ والنسب: خفض الجناح لمن يتبع رسول الله من المؤمنين، والبراءة من عمل المعرضين الضالين أياً كانوا ولا كرامة!!

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فقال: يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباسُ بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً». وفي رواية: «يا بني عبد المطلب» «يا بني عبد مناف».

وفي رواية لمسلم: لما نزلت الآية دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببِلالها» أي سأصلها ولا أغني عنكم من الله شيئاً.

إنها دعوة إلى الاندفاع المجدي على طريق الحق، في ظل الشعور بالمسؤولية كلٌّ عن نفسه، والحسِّ بتبعة الواجب، دون اتكال على الآخرين، أو اتكاء على تقاصر أو إعراض فلان أو علان، ناهيك عن التعلُّل باعتبارات تلتقط من هنا وهناك «أنقذوا أنفسكم من النار» «أنقذي نفسك من النار» «لا أغني عنكم من الله شيئاً» «لا أغني عنكِ من الله شيئاً».

صلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير إمام الدعاة المتقين؛ لقد عمد ـ امتثالاً لأمر ربه ـ إلى مناداة أولئك الأقربين على اختلاف مراتبهم في القرابة بهذا التحديد الواضح الذي لم يعرف الاشتباه إليه سبيلاً، وكان ذلك دليل الأهمية البالغة لبناء إنسان الرسالة على تلك القِيَم ذات الأثر في إحكام البناء؛ فإذا توافر الشعور بالتبعة، والإحساس الذاتي بالمسؤولية، برزت الإمكانات، واتجهت الطاقات إلى حيث تعمل عملها في ميدان الصراع المرير بين الحق والباطل.

ولقد أثمر نداء الرسول ﷺ، فاستيقظ الموفقون على صوت النذير وراحوا يسلكون أنفسهم في ركب أهل الإيمان الذين يصطلون بنار الفتنة صباحَ مساءَ، تاركين ـ وهم الفئة القليلة المؤمنة ـ قطيع الجاهلية الأرعن إلى غير رجعة، مقبلين على الله بكل شراشرهم، صابرين ـ على البلاء ـ محتسبين.

ولسوف تجد الأمة في هذا المعلم القرآني، وبيانه القولي والعملي من رسول الله ﷺ حيث طبقه على الشكل الذي أثبتته النصوص.. لسوف تجد ـ إن هي اهتدت بهداه من حيث آفاقه في الهداية ومراميه ـ ما يشدها إلى ساحة من الجدية والحزم

النافع في بناء الإنسان ذكراً كان أو أنثى، الإنسان الذي يقدّر مسؤولية الكلمة ومسؤولية العمل، والذي تسيِّره مع طريق التكوين والإسهام في بناء المجتمع المسلم وتنمية طاقاته بأنواعها، حوافزُ ذاتية لا تحتاج إلى مهاميز مصطنعة من هنا وهناك.

وإذا كانت ثغور البناء والتنمية كثيرة متنوعة على صعيدي الأصالة والواقع، فما أحوجنا إلى تنمية هذه القيم التي بدأ بإرسائها في القلوب والعقول محمد ﷺ وهو يتجه صوب إبلاغ الدعوة وبناء حضارة الإسلام.

أجل ما أشد الحاجة إلى تنمية هذه القيم ـ من طريق التعليم والتربية والإعلام وأساليب الدعوة ـ عند كل قائم على واحد من تلك الثغور، وتحقيق ذلك خطوة متقدمة ـ بلا ريب ـ على طريق استئناف المسيرة الخيِّرة إن شاء الله.



الرحمة.. وبناء الإنسان

«١»

من السمات الحضارية التي كانت من عطاء رسالة الإسلام في واقعها العلمي والخلقي من ناحيتي التصور والتطبيق العملي: ما أعطي للرحمة من حجم بعيد المدى في حياة المسلمين أفراداً وجماعات، يحمل طابع الشمول ولا تعوزه إنسانية الإنسان.

وكان ذلك ضمن إطار من الحكمة البالغة في وضع الأمور مواضعها شدةً وحزماً، ورحمةً وشفقة، والانضباط بضوابط منزهة عن سلطان الأهواء والنزغات.

فللشدة مكانها الذي لا ينفع فيه غيرها، والذي يؤدي إلى الرحمة بمن عومل بتلك الشدة والحزم، ولذلك ماله من أثر طيب في حياة الفرد والجماعة بل والأمة بإطلاق!!

كما أن للرأفة مكانها كذلك دون وكس ولا شطط بحيث تعطي ثمراتها الطيبة، ويسهم وضعها في المكان الملائم في لم الشعث وصفاء القلوب، والإحكام في بناء الإنسان.

ومن خصائص الشرعة المباركة في الإسلام أنها تمسك بعاتق الميزان في هذين الأمرين وأمثالهما، الأمر الذي تتجلّى معه حكمة الحكيم الخبير سبحانه فهو الحكيم الذي يضع الأمور مواضعها فيما يصلح العباد والبلاد، الخبير بما هو الخير لعباده والأصلح لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

ولست هنا بسبيل الاستقصاء المودع تفصيله في مظانه، ولكنها الإشارة العابرة.

فأنت واجد ـ على سبيل المثال ـ أن إقامة الحدود ـ في بعض حِكَمها والأغراض التي تحققها ـ هي نوع بارز من أنواع الرحمة؛ لما فيها من الحفاظ على بنية الأسرة وكيان المجتمع، وصيانة الدين والمال والنفس والعرض والأخلاق

والأنساب وما إلى ذلك. ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ②﴾ [النور: ٢].

وماذا أنت قائل عن الجهاد في سبيل الله ـ ذروة سنام الإسلام ـ الذي لا يرتاب منصف في أنه ـ ببواعثه وأهدافه وثمراته العظيمة ـ رحمة من الله لبني الإنسان؛ لما فيه من إزاحة ركام الظلم وطغيان الظالمين من طريق الإنسان، كيما يتاح لفطرته أن تستجيب لدعوة الحق، وكيما يعيش إنسانيته الحقة، ويستمتع بما أعطاه الله، وما سخر له من خيرات هذا الكون، ولما فيه من تهيئة السبل لنشر كلمة الله في الأرض، ونصرة الشعوب المستضعفة، ودفع أذى الفتنة عمن يحملون لواء الحق ويعملون على إعلاء كلمة الله وتحقيق ما فيه إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ㉙ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ㊵ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ㊶﴾ [الحج: ٣٩-٤١] وحسبك أن هذا كله ومثله كثير في شرعة الإسلام يدخل ضمن إطار الرحمة التي أرسل بها محمد صلوات الله وسلامه عليه. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ①⓪⑦﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفي تأصيل لمقام الرحمة في هذا الدين وبيان مكانتها: نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام توعّد الذين لا يرحمون الناس بحرمانهم من رحمة الله، وهي حقيقة أعلنها ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم وأرسله الله رحمة للعالمين ـ بالكلمة الواضحة بلا لبس أو غموض. روى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

ونقع على نص من كلامه صلوات الله وسلامه عليه يتسم أكثر وأكثر بالتعميم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبَّل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما ـ وعنده الأقرع بن حابس ـ فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحداً؛ فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ» أخرجه البخاري ومسلم.

وهكذا يمتد رواء الرحمة في الإسلام حتى يصل إلى العجماوات والبهائم.

وفي سورة «النمل» يهدينا المعلم القرآني إلى واقعة تحمل صورة غايةً في الإشراق على هذه الساحة المباركة؛ وذلك فيما قصَّ الله علينا من واقعة النملة ـ على ما هي عليه النملة ـ التي أنطقها الله فقالت محذِّرة النمل خطر الحطم والهلاك.﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ وما كان من دعاء سليمان عليه السلام بعد أن تبسَّم ضاحكاً من قولها. ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٧-١٩].

سبحان الله؛ هذا الدعاء الجامع الذي يصدر من نبي من الأنبياء بمناسبة تخوف النملة ـ هذه الحشرة الصغيرة الضعيفة ـ واحد من كلام النبوة ودلائلها؛ إن سليمان عليه السلام يسأل ربه أن يلهمه شكر نعمته التي أنعم بها عليه وعلى والديه، كما يسأله التوفيق لعمل صالح يرضاه سبحانه، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين.

وإذا لم نلمح من خلال هذه الدعوات النديَّة الثريَّة ما يتصل كلَّ الاتصال بالرحمة حتى بذلك المخلوق الأعجم الضعيف؛ نكون قد ظلمنا أنفسنا ـ والله أعلم ـ وظلمنا الحقيقة.

ولما كانت العبرة من القصص القرآني مقصودة لذاتها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦] كان لزاماً أن نتخذ من هذا المعلم القرآني وأمثاله ضياءً على طريق تكتنفه

المصاعب، فنحمل لواء الرحمة عند البناء وتنمية طاقات الأمة ـ بعامة ـ والبشرية منها بخاصة؛ وذلك بأن نضع الأمور مواضعها، ونؤدي ـ في ضوء الشرعة المباركة ـ لكل ذي حق حقه، ونستمطر رحمة اللّه برحمة بعضنا بعضاً كلٌّ في حدود ما أورده اللّه وأعطاه، والثغر الذي أقامه عليه.

مرة أخرى: أن يُعلِّم سليمانُ عليه السلام منطق هذه المخلوقات، وحين يسمع ما قال ذلك الحيوان الضعيف، يبتسم ضاحكاً، ويدعو اللّه بتلك الدعوات التي حملها إلينا الكتاب العزيز: إيذان بأن يفسح ـ بالأولى ـ للرحمة العامة على صعيد التعامل في المجتمع، وإبانة مؤكدة عن أن ذلك مما يرضي ربنا تبارك وتعالى.

وإذا أردنا التوفيق فيما نسعى له من بناء لا يعوزه الإحكام والشمول، وتنمية تعتمد الجدِّية وحشد الطاقات بعلم وأمانة: كان علينا، في نظرة متكاملة ـ أن يصحب الأخذ العلمي والاقتصادي بالأسباب، رحمة لمن في الأرض تستدر رحمة السماء، وبذلك يكون السداد والتوفيق إن شاء اللّه.

وليت أن للظلَمة قساةِ القلوب غلاظِ الأكباد آذاناً تسمع نداء السماء!!



بناء الإنسان الرحمة.. والبناء

«٢»

هذا كلام موصول بالحديث عن معلم قرآني أشرقت به آيتان من سورة النمل، ورأينا من خلاله صورة من صور الرحمة الإلهية بمخلوقات الله كبيرها وصغيرها، من خلال ما فاضت به دعوات سليمان عليه السلام، وهدانا ذلك إلى أن الرحمة إذا كانت لمخلوق كالنملة كذلك، فأولى بها وأحرى أن تكون للإنسان من أخيه الإنسان.

وانطلاقاً من الحجم الكبير الذي أعطي للرحمة في حضارة الإسلام وواقع المجتمع الإسلامي، رأينا في الجهاد وإقامة الحدود لوناً من ألوان الرحمة للفرد والجماعة.

والواقع أن هذه الرحمة في المنظور الحضاري، قد امتد رواقها وامتد.. حتى وصل إلى كل مخلوق متصوَّرٍ من البهائم والعجماوات، فضلاً عن بني الإنسان.

ولئن كان المعلم الذي أشرنا إليه فيما سبق، يشكل واحدة من روائع هذا الكتاب الكريم ـ وكله رائع معجز ـ إن ما جاء في سورة النمل صورة من صور الرحمة على ساحة متسعة الأرجاء تقرأ من خلالها كثيراً من الآيات التي تدعو إلى الرحمة، كما تقع على كثير من خواتم الآي التي تذكّر برحمة الله تبارك وتعالى لأن ما أودع في قلب عباده من هذه النعمة هو جزء يسير جدٌّ يسير من رحمته سبحانه بخلقه وهو الرحمن الرحيم.

وعلى هذه الطريق النيرة بإنسانيتها جاء وصف الرسول ﷺ بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وحفلت السنة المطهرة بكثيرٍ من الأحاديث، بل والوقائع التي كانت بياناً عملياً لما دلت عليه معالم القرآن الكريم، حيث اتسعت ميادين الرحمة لا للبشر فقط ـ كما ذكرنا ـ بل تعدّت ذلك إلى كل المخلوقات التي لا تعقل ولا يحكمها إطار التكليف.

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه مرَّ بفتيان من قريش، قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كلَّ خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً» أي هدفاً.

هكذا كان صنيع ابن عمر أنه أزال هذا المنكر مستدلاً بأن رسول الله ﷺ دعا بالطرد من رحمة الله على من اتخذ شيئاً فيه الروح هدفاً يرميه.

ولقد يكون ما صنع هؤلاء الفتية دربة على الجهاد، ولكن ابن عمر ـ وهو من أجلاء علماء الصحابة ـ بيَّن أوضح بيان، أن الغاية النبيلة الكريمة، لا بد أن تُسلَكَ لها الوسيلة المشروعة، لأن الغاية لا تسوِّغ الوسيلة في الإسلام، فلا نتخذ من الحرام طريقاً إلى الحلال.

وبعد هذا: فلقائل يقول: ما بالك تتحدث عن الرحمة ودماءُ المسلمين تجري أنهاراً على يد أعدائهم، وحرماتهم وأرضهم تنتهك صباح مساء.

وجوابي عن ذلك أني قصدت إلى الكلام على الرحمة ـ والحال هي الحال ـ كيما أُ ذكِّر أولئك الجانحين، الذين ما تزال في صدورهم بقية باقية من حسن الظن والذين يلتبس عليهم الأمر ـ أحياناً ـ بين التقدم العلمي، والسلوك الخلقي؛ وأن يجروا شيئاً من المقارنة بين مبادىء أمتهم وما عليه أعداؤها سدنةُ الحضارة المتحكمة اليوم؛ فلقد سارت الحضارة الغربية بخطين متعاكسين، تقدمٌ علمي إلى الأمام، وتقهقر خلقي ـ بل ظلم واستكبار ـ إلى الخلف.

وإلى أن نلتقي أرجو أن يكون في تصورنا ووعينا دائماً ونحن على طريق البناء والتنمية أننا بالإسلام كنا وبالإسلام نكون إن شاء الله. فلنأخذ ما نأخذ من العلم التقني ومنجزاته، وعقولنا متفتحة وقلوبنا بالإيمان مشرقة.

* * *

الرحمة.. والبناء

«٣»

ما أكرم ما يجد المرء في حديث رسول الله ﷺ وسيرته من بيان لمعالم كتاب الله، ولا بدع، فإن الله تبارك وتعالى قد أولى نبيه محمداً أمانة هذا البيان، ولقد أشرت فيما سبق من قريب إلى أن السُنَّة قد حفلت بكثيرٍ طيبٍ من البيان العملي لواحد من معالم القرآن يعطي للرحمة أوسع الأبعاد وأعمقها في المجتمع. وأتيت على واحد من الأمثلة لهذا في حديث لابن عمر رضي الله عنهما.

ويشدنا المعلم القرآني إلى نماذج أخرى يجب الوقوف عندها، وتأمل دلالاتها وعطائها، خصوصاً ونحن أبناء هذه الأمة، يلفنا واقع بلونا منه كثيراً على صعيد الثقافة والاجتماع والاقتصاد بل وعلى كل صعيد.

والمطلوب اليوم ـ في وجه التحديات التي لا ترحم ـ أن نكون كفاء رسالتنا، فننهض بعبء التغيير إلى ما هو أفضل، مرتفقين بأمرين اثنين لا بد منهما:

أولهما ـ المعرفة التامة بطبيعة المعركة بين الحق والباطل، وطبيعة العدو الذي نقارعه على هذه الساحة، وما هي وسائله إلى تحقيق الغايات التي يريد.

الثاني ـ أن نراجع بوعي وأمانة رصيدنا الفكري والحضاري وكل عناصر بنيتنا التي قامت على العقيدة الصحيحة والحمد لله، حتى تسامق البناء وارتفع. ومن ذلك تلك السمة الحضارية التي ألمحنا إليها والتي كان من مظاهرها رحمة الإسلام حتى للحيوان الأعجم الذي لا يملك تلك القوة الناطقة التي كرم الله بها الإنسان.

على هدي ذلك: ننظر في تلك النماذج الأخرى من السنَّة لِتكون عوناً لنا في تعميق درب الأصالة، ولتكون ضياء طريقنا ونحن نبني كياننا الذاتي، وننمي قدرتنا، حيث يسلمنا النماء إلى نماء خير منه إن شاء الله.

فقد روى أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة، فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ، فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها».

أرأيت كيف انتصر رسول الله لهذا الطائر الصغير وهو الحمّرة، لقد آلمها فقد ولديها ففرشت جناحيها واقتربت من الأرض وهي ترفرف، فأمر صلوات الله وسلامه عليه أن يُرَدَّ لها ما فقدت.

ولم تشغل مهامّ الدعوة وأعباؤها، وترسيخ أسس الدولة وأبعادها رسول الله عن الوصية بحسن التعامل مع تلك المخلوقات المسخَّرة؛ فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم بالجدب، فأسرعوا عليها السير، وبادروا بها نِقيها».

فلا إشكال في الخصب ولكن في الجدب يأمر رسول الله بالإسراع حتى تصل الإبل المقصد قبل أن يذهب مخ عظامها من ضنك السير.

وأكثر من هذا ...! لقد حملت إلينا السنة المطهَّرة الأمر بترفيه الدوابّ والنهي عن اتخاذه كراسيَّ؟ ذلكم ما روى أحمد وابن خزيمة وابن حبان والبيهقي عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اركبوا هذه الدوابَّ سالمةً وابتدعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي» وأخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. ابتدعوها: اتركوها ورفِّهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها .

هذا هدي رسول الله في ظل معالم القرآن، مع هذه المخلوقات، فما بالك برحمة الإنسان، وأين هذا من دعاوى الأدعياء.

ونحن الذين لم يحمل التاريخ عنا يوم كنا على سُدَّة الأمر والنهي في العالمين إلا أكرم صور الرحمة حتى مع الأعداء، نعامِل اليوم من الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم؛ بما يتفطر له قلب الإنسان أن لو كان فيهم إنسان، وعلى هذا فلنعد إلى المحجة النادرة القاهرة بإذن الله، حيث تكون مجابهتنا لأعداء الله رحمة، وانتصارنا

رحمة، وغسل الأرض من رجس أعداء الحق والإنسان وصنائعهم أعلى نوع من أنواع الرحمة لنا بل وللإنسانية جمعاء، وإنها لخطوة متقدمة على طريق البناء والتنمية أن تفيض جوانحنا بهذه المشاعر التي تنعكس على ساحات المواجهة على اختلاف أشكالها وصورها.



الرحمة.. والبناء

«٤»

أجدني ومتابعة الاستثارة بما هدى إليه المعلم القرآني في سورة النمل، وما كان من دعاء سليمان عليه السلام الذي اختتمه بقوله: «.. وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين» وما رأينا من البيان النبوي الذي يقرر موقع الرحمة في الإسلام حتى للعجماوات مهما بدا من صغرها وقلة حيلتها: اجدُ هذه المتابعة تقود تلقائياً إلى استذكار ما أخبر به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام من أن امرأة فيمن كان قبلنا دخلت النار بهرة ظلمتها بأن حبستها وحبست عنها الطعام والماء، فماتت؛ وإنه لخبر يحمل الوعيد الشديد وهو دخول جهنم لمن استبدل الأذى والظلم لأحد من خلق الله ـ ولو كان هذه البهيمة العجماء التي هي الهرة ـ بالرحمة والإحسان: ذلكم ما أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ـ ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض»**.

«خَشاش الأرض» بفتح الخاء المعجمة، والشين المعجمة المكررة: هوامُّها وحشراتها.

والكلام من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعليق، وهو يشدنا بعد رحلتنا المجلى مع المعلم القرآني الآنف الذكر وما يقرره ويؤكده من حديث النبي عليه الصلاة والسلام إلى ما ثبت في الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»**. أخرجه مسلم من حديث شداد بن أوس وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ونصُّ رواية مسلم عن شداد بن أوس رضي الله عنه

قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليُحدَّ أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته».

فهذا الهدي النبوي ــ كما نرى ــ وثيق الصلة بالرحمة بل هو الرحمة كلها بالنسبة لما يطلب في القِتلة والذِّبحة.

فالرسول صلى الله وسلم وبارك عليه يدعو إلى الإحسان فيهما بالأمر الجازم المقتضي للوجوب «إذا قتلتم» والخطاب للمسلمين والمسلمات «فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة».

وهذا من الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام غاية الغايات على هذه الساحة؛ فحتى الحيوان المؤذي الذي شرع قتله كفاً لأذاه عن الناس، على المؤمن أن يحسن قتله، فيسرع في إزهاق روحه على الصورة التي يتحقق معها الإحسان، فلا يعذّب وهو في سبيل الموت.

وكذلك الدابة التي شرع ذبحها، وهي مما أنعم الله به على الإنسان وسخره له: على المؤمن أن يحسن ذبحها فلا ينالها التعذيب كذلك.

ولقد كان من جميل هديه صلوات الله وسلامه عليه وروائع بيانه قوله في الدلالة على ما به إراحة الذبيحة من العذاب وهي تذبح: «وليُحِدَّ أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته» فعلى المؤمن أن يكون محسناً في ذبحها لا مسيئاً؛ وذلك بأن يُحدَّ الشفرة التي يريد ذبحها بها، وأن يعمل على أن تكون على هيئة مريحة لها وقت الذبح. والمهم أن يذبح هذه الدابة على الشكل المشروع الذي تعتبر به مزكاة مصحوباً ذلك بالإحسان الذي كتبه الله على كل شيء.

وكم في إعلامنا ــ نحن المسلمين وحال الأمة هي الحال ــ أن الله كتب الإحسان ــ أي فرضه ــ على كل شيء، هكذا بهذا العموم، من تكريم وتوجيه إلى سلامة البناء الحضاري الذي لا تعوزه إنسانية الإنسان!

وكم في ذلك أيضاً من ارتقاع بالإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ بل وبالجماعة المسلمة إلى أن يكون الجميع في تصرفاتهم عنوان الرحمة والإحسان، ولكن بوعي يعطي كل شيء قدره ويضع كل أمر موضعه، فللندى والرحمة مكان، وللسيف نصرةٌ للحق ودفعاً لأذى المؤذين مكان!!

وهذا الإحسان المقترن بالرحمة، النابعُ من الانصياع لما أرشد إليه القرآن الكريم، ووجه لإنفاذه عملاً وسلوكاً نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام: هو ما كان من المسلمين عبر التاريخ في كل فتوحاتهم ومعاملاتهم في ظل الحكم الإسلامي مع غير المسلمين يوم كانت لهم راية مرفوعة، وكلمة مسموعة، وقوة يرهبون بها عدو الله وعدوهم.

وغير مجهول ـ على سبيل المثال وما أكثر الأمثلة ـ ما صنعه القائد المسلم المظفَّر صلاح الدين الأيوبي يرحمه الله يوم حرر بيت المقدس من رجس الصليبيين جزَّاري الأمس وهو على أريكة القوة والنصر المبين ـ حين سمت به أخلاق الإسلام إلى مرتبة في التعامل مع أولئك الأعداء الذين كانت له الغلبة بإذن الله عليهم، هي أشبه بالخيال: عفواً وتسامحاً وبُعداً عن الانتقام.

هذا في الوقت الذي جرت فيه دماء المسلمين أنهاراً في القدس عندما دخلها أولئك الصليبيون وغصت الطرقات بأشلاء النساء والأطفال والشيوخ، ناهيك عما كان من السلب والنهب وارتكاب ما لا يحصى من المآثم، وقد فعلوا ذلك كله باسم الدين والدينُ منهم براء.

وصنيع أعداء الله اليوم من يهود ونصارى صهاينة ووثنيين ومن على شاكلتهم على نسبٍ من صنيع الصليبيين في القدس وفي الأندلس ـ على تطور في شناعة الأسلوب وقبيح الممارسات.

والمهم أن يكون اعتزاز الأمة بحضارتها وقيمها النابعة من الكتاب والسنة ثم فهم أئمة الهدى ـ عبر السنين الطوال ـ حافزاً إلى مزيدٍ من التمسك بالأصالة والحرص على منطلقات العقيدة، والقضاء على عامية الفكر في شأن الأعداء وتحديد المواقع سلماً وحرباً، وعدم الاستسلام لمن يُدهنون لنا بالقول، وفي أيديهم سكين الجزار تقطر من ضحايا عدوانهم دماً، وما تخفي صدورهم أكبر!

وليكن هذا التناقض بين السمات الأصيلة في حضارتنا الإنسانية وبين دعاوى الآخرين التي يكذبها الواقع ويفضح عوارها في التطبيق، عاملَ استئناف جادٍ حازم لحسن ولائنا لأمتنا، وحضارتنا وتاريخنا طلباً لمرضاة الله عز وجل.

ولعل ذلك من أمضى القوى الدافعة للتشمير عن سواعد الجد، على ساحةٍ كفاؤها، إيمان قوي، وجهود خيِّرة تبذل، ووقت يحافظ عليه في إطار منهجية منضبطة وسلّم للاهتمامات والأولويات لا يريم، يكون من ثمراته: تنمية دائبة موجّهة لكل الطاقات والناعليات، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

هذا على صعيد العلاقة مع الآخرين. أما على الصعيد الداخلي: فكم يزيد أمر الإحسان والرحمة في الإسلام حتى في التعامل مع العجماوات والبهائم وضوحاً أن يأخذ هدي النبي ﷺ ـ وهو بيان القرآن ـ طريقه إلى العمل والتنفيذ في العلاقة بين ولي الأمر ومن يوليه الله أمرهم في حياة المسلمين.

فكما تطلب طاعة ولي الأمر المسلم بالمعروف: كذلك عليه أن يكون ناصحاً لرعيته في دينهم ودنياهم رفيقاً بهم، لا يتبدَّل الظلم والطغيان بالعدل والرحمة والإحسان.

فعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه أنه دخل على عُبَيْد الله بن زياد فقال له: أي بُنيَّ؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شرَّ الرعاء الحطمة» فإياك أن تكون منهم. رواه البخاري ومسلم.

والذي يموت وهو غاش لرعيته محرَّم عليه أن يدخل الجنة والعياذ بالله. روى البخاري ومسلم عن أبي يعلى معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة». وفي رواية لمسلم «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة».

ومما يهز القلوب والمشاعر ـ أن لو كان للظلمة قلوب ومشاعر ـ أن الرسول ﷺ يدعو دعاءً صريحاً على من يشق على الأمة إذا ولي من أمرها شيئاً، ويدعو لمن يرفق بهم إذا حُمِّل أمانة الولاية كذلك؛ فمن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللّهم من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فشقَّ عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به» رواه مسلم.

فإذا كان الله قد كتب الإحسان على كل شيء، وعلى المكلّف أن يحسن قتلة الحيوان المؤذي، وأن يحسن ذبح الحيوان المشروع أكله بعد التذكية، وأن يُحدَّ شفرته ويريح ذبيحته. فأيُّ عدوان على الإنسان وهدي القرآن والسنة يقترفه الظلمة بظلمهم المسلمين!!

* * *

مرة أخرى.. مع الرحمة والبناء

«٥»

في حديث ينتسب إلى ما كنا بصدده فيما سبق من الانتفاع بهدي المعلم القرآني في سورة النمل، والصورِ العملية لبيانه من السنة ووقائع التاريخ: يبدو أنه لا تثريب علينا.. والأمر أن نشير إلى أن أعداء أمتنا لا يفتؤون يعملون على إقناعنا مع الآخرين أنه ليس عندنا ما يرتكز عليه في ساحة القيم الحضارية، ويكاد بعض بني جلدتنا ـ مع الأسف ـ يصدق ذلك بل وتقرأ ـ فيما تقرأ ـ أن بعض من هانت عليهم أنفسهم قد جنح إلى التصديق.

من أجل ذلك كان من مقتضيات الإحكام في البناء أن يكون للرواد نظرة واعية تكون الخطوة الأولى لاستئصال هذا المرض وأمثاله من بعض النفوس. ومنطق الأقوياء اليوم يتجاهل البعد الذي أعطاه الإسلام للرحمة، فكان سمة بارزة من سمات حضارية لمسناها من خلال العطاء القرآني وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام المبلغ عن الله عز وجل، تلك التي كان منها قوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة..» رواية مسلم عن شداد بن أوس.

ولقد يكون من الأهمية بمكان أن نحسن فهم العموم الذي نطق به قوله ﷺ ـ فيما روى البخاري ومسلم ـ: «منْ لا يَرحمْ لا يُرحَمْ».

وليت أن هؤلاء الأقوياء يتجاهلون ما لا يحسن تجاهله وكفى.. بل إنهم في سلوكهم معنا، يسلكون سبلاً هي على النقيض دائماً من الرحمة والإحسان؛ فتراهم وهم أدعياء الحرية والإنسانية اليوم: يقتلون المسلمين ولا يحسنون والله قتْلَهم، ويذبحون أطفالهم ونساءهم ولا يحسنون والله ذَبْحَهم ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج :٨]

ونقول لمن يطلب الدليل: أين أنت مما صنعوا ويصنعون في فلسطين وجنوب لبنان؟ وهلا أصغيت إلى القليل الذي يذاع من أخبار أوغندا، وما يجري من المذابح والصلب والتشريد وانتهاك الأعراض لمن يقولون «لا إله إلا الله» والدول الكبرى تبارك وتشجع؟ وهل غاب عنك ما يحدث في أفغانستان، وأرتيريا، وتشاد، والفليبين، وغيرها من بلاد الله، وكل ذلك تحت سمع وبصر أولئك الذي يُدِلّون ـ لا سمعوا ولا أبصروا ـ على العالم بالتّمدُّن والتحضر وإعلان حقوق الإنسان.

ولكن لعل لهم تعريفاً آخر للإنسان لم نصل بعد إلى مستواه، لأننا لسنا منهم...!

والذي يعنينا ـ والأمة تحاول أن تقضي على العبث، ويرتاد لها البررة من أبنائها طرائق التنمية والبناء ـ أن لا يكون حظنا من المصائب والنكبات، حظ النادب والنائحة، ولكن أن يوظّف هذا الذي يحدث، على ساحة العطاء؛ وتنمية الإدراك الذاتي للحقيقة ـ كما هي ـ بصرف النظر عن العنوان المكذوب الموضوع لها.

وكوننا أبناء الرحمة والإيمان لا يعني الغفلة واللامبالاة؛ ومن الإحسان لأنفسنا وللإنسانية أن نعمل على بناء قوتنا الذاتية وحشد كل طاقة ممكنة لمواجهة أكلة لحوم البشر وجزاري الحرية في الداخل والخارج الذين يسخّرون العلم لهدم الإنسان واستئصال العقيدة التي تحمي إنسانية الإنسان.

ومعاناةُ المسلمين اليوم جديرة بأن تفجر طاقات شبابنا المؤتمنين على مسيرة الخير والنماء. صحيح أن الغاية هي آخر الطريق ولكن سلامة تصور الغاية وتبين أبعادها لا بد أن يكون من أول الطريق، ذلك خير وأحسن تأويلاً.

* * *

المحتويات

الموضوع	الصفحة

* * *